المختار من

تفسير الشعراوي

للقرآن العظيم

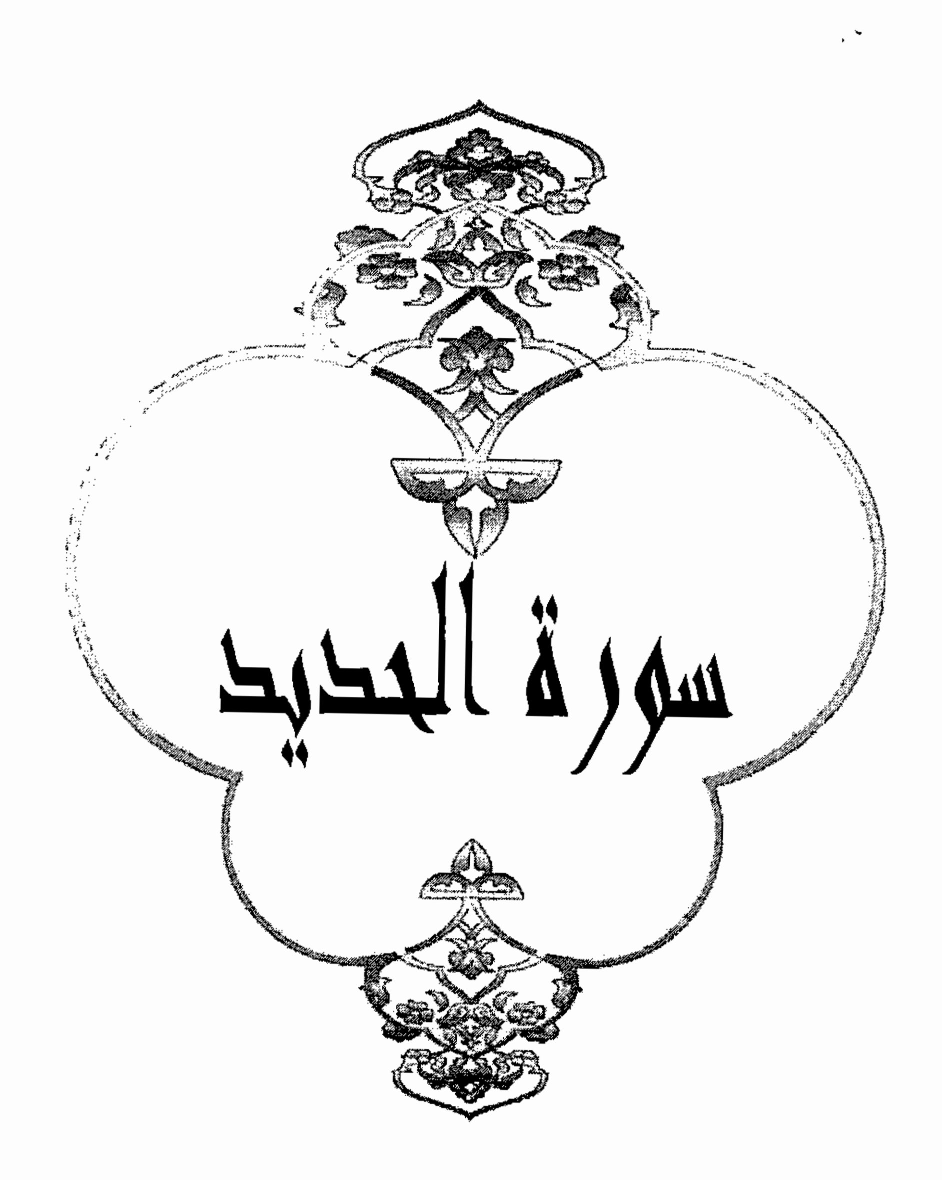
لفضيلة الإمام / محمد متولي الشعراوي

الجزء الثالث

تقديم / عمرو خالد إعداد / فريد إبراهيم

دار الروضة

طبع ـــ نشر ـــ توزيع


سورة الحديد

سُورَةُ الحَدِيدِ

﴿.. وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]

عندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أنْ يستخرجَ كُنوز الأرض، ويحمي أرضَ الإيمان بالتقدم الصناعي والعلمي والعسكري. والحق سبحانه يقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ.. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]

فالحق سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد، ويتبع ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ.. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]

وجاء معنى البأس من أجل ذلك، وهذا هو السبب الثاني الذي أوصانا به الحق: إياكم أنْ تأخذوا منهجَ الله فقط الذي ينحصر في (افعل) و (لا تفعل) ولكن خذوا منهجَ الله بما يحمي منهجَ الله، وهو التقدم العلمي باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً.

فسبحانه كما أنزل القرآنَ يحمل المنهج، فقد أنزل الحديد، وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التي تُسَهّل لنا صناعةَ الأجهزة العلمية، ونُقيم المصانع التي تنتج لنا من الحديد فولاذاً، ونُحوّل الفولاذ إلى دروع، ونصنع أدقَّ الأجهزة التي تُهّيء للمقاتل فُرصةَ النصر، وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفي في أيام الحرب.

إذن: حركةُ الحياة كلها جهاد، وإياك أنْ تقصرَ فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة، ولكن أعدّ نفسك للمعركة؛ إنك إنْ أعددتَ نفسك جيّداً، وعلم خصمك أنك أعددتَ له، ربما امتنع عن أنْ يحاربك.

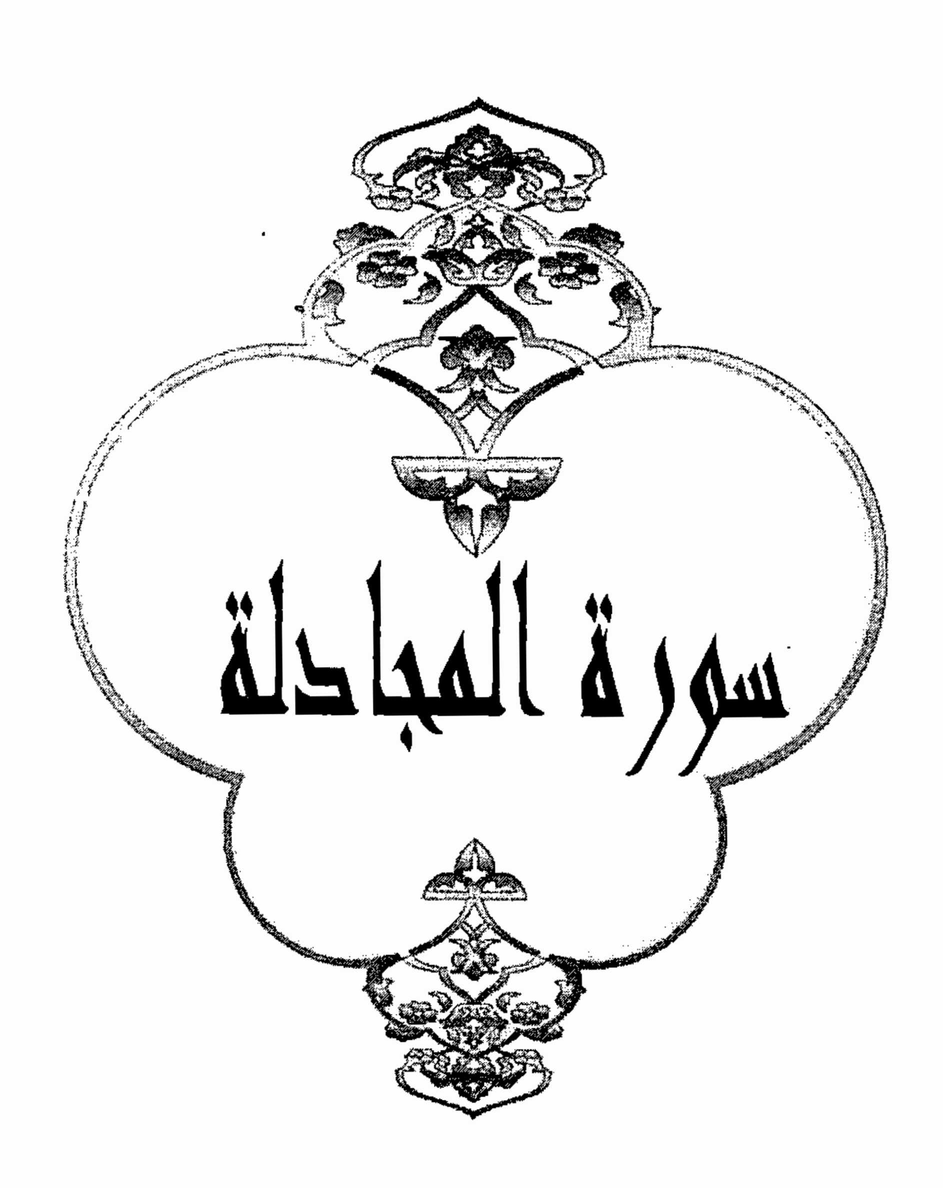
والذي يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة، لأن كلَّ دولة تُعدّ نفسها للحرب، ولو أن قوةً واحدة في الكون لهدمتْ الدنيا.

فهو جهاد في سبيل منهج الله ؛ وندرس هذا المنهج ونفهمه، وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان، ونجاهد فيه بالكتاب، ونجاهد فيه بالكتيبة.

وليست مهمة الحديد أنه ينفع الناس فحسب، إنما له مهمة قتالية أيضا، لذلك قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾، فإنْ كان القرآن نزل للهداية، فالحديد نزل ليؤيد هذه الهداية، حيث نضرب به على أيدي الكافرين العاصين، ونحمي به صدور المؤمنين المُصدِّقين.

لذلك قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ أي: من أعلى مع أنه خارج من الأرض.

إذن: مسألة الحديد في الأرض نعمة كبيرة من نِعم الله علينا، بها نحفظ أنفسنا من العدو، فالحق سبحانه وتعالى خلق الخلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته، وهذا يستحق منا الشكر الدائم الذي لا ينقطع.


سورة المجادلة

سُورَةُ المُجادلةِ

بينَ الوُدِّ.. وَالمَعرُوفِ

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

بعضٌ من أعداء الإسلام يقول: آياتُ القرآن تتعارض؛ لأنه يقول: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

والنسب الإيماني يمنع ذلك.

ويقول القرآن في موضع آخر: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ .. ﴾ [لقمان]

يقولون: كيف أن الله يقول: لا توادوا مَنْ يحارب الله ورسوله، ثم يأتي ويقول: إذا حاول أبواك أنْ يجعلاك تشرك بالله فصاحبهما في الدنيا معروفاً، وطبعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يحاربان اللهَ ورسوله.. كيف يكون هذا التناقض؟ كيف لا يواد المؤمنُ ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره؟

نقول: إنكم لم تفهموا المعنى.. والذي يتعمَّق جيداً يعرف أن الإنسان يصنع المعروفَ فيمَنْ يحبُّ ومنْ لا يحب، فقد تجد إنسانا في ضيق وتعطيه مبلغاً من المال كمعروف، دون أنْ يكونَ بينك وبينه أيُّ صلة.

أما الود فلا يكون إلا مع منْ تحب، وهو عملُ القلب، وهذا ما نهى عنه اللهُ بالنسبة للمشركين به، أما المعروف فالمسلم مطالبٌ أنْ يفعله حتى بالنسبة لمنْ يكرهه.

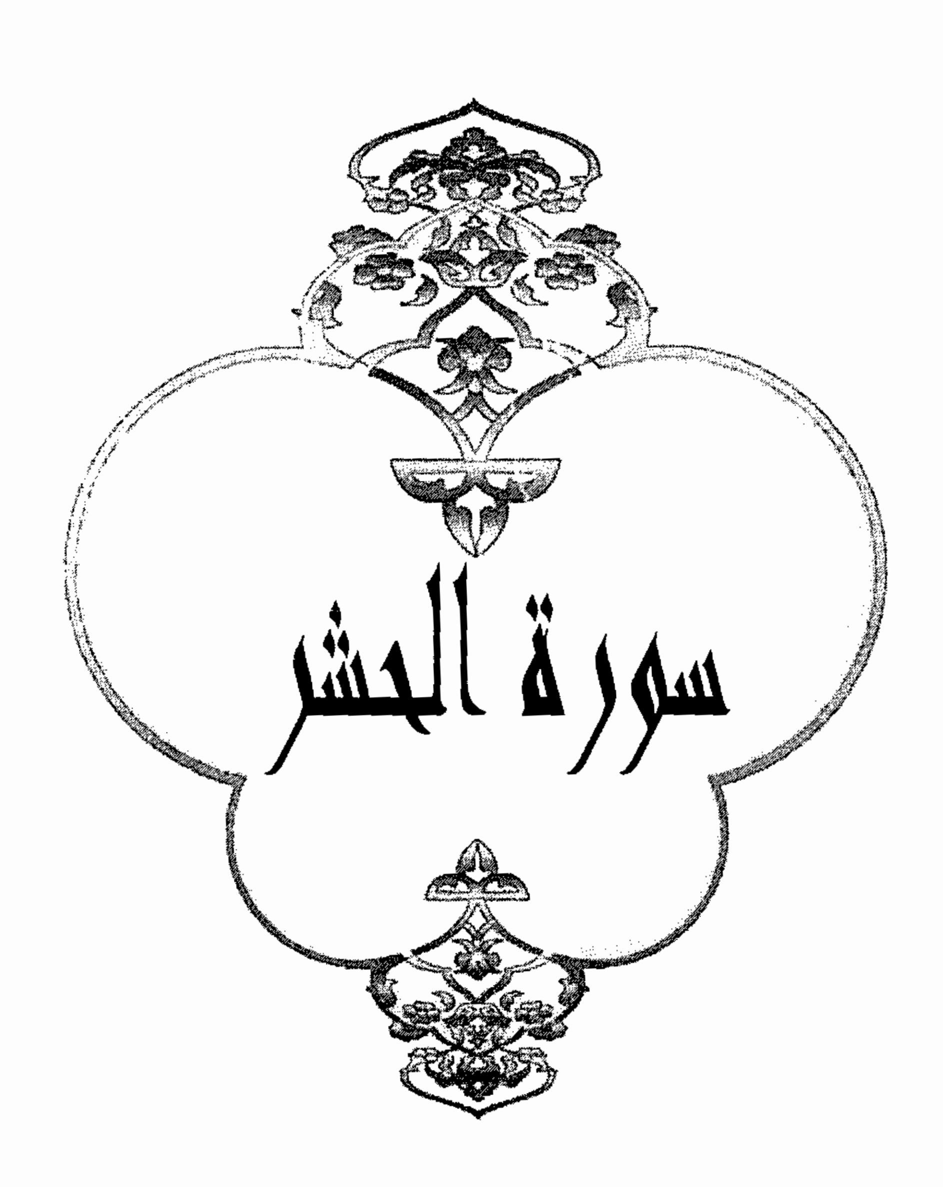
فهؤلاء لم يفهموا الفرقَ بين المودة والمعروف. فالودُ شيء والمعروف شيءٌ آخر. الود يكون عن حُب، أما المعروف فليس ضرورياً أن يكون عن حُب، فساعة يكون جوعانٌ سأعطيه ليأكل وأُلبِّي احتياجاته المادية، هذا هو المعروف.

أما الوُد فهو أنْ أعملَ لإرضاء نفسي، وساعة يعطف الرجلُ المؤمنْ على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُدِّ، إنما هو يعطف عليه نتيجةً للمعروف لأنه حتى لو كان كافراً سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحقُّ سبحانه إبراهيمَ عليه السلام في ضيف جاء له فلم يكرمه، لأنه سأله وعرف منه أنه غير مؤمن، لذلك لم يُضيّفه؟ فقال له ربُّنا: أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أنْ تُغيِّرَ دينه، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟

فماذا فعل سيدنا إبراهيم؟ جرى فلَحِقَ بالرجل. وناداه، فقال له الرجل: ما الذي جعلك تتغير هذا التغييرَ المفاجيء.

فقال له إبراهيم عليه السلام: والله إن ربي عاتبني لأني صنعتُ معك هذا. فقال له الرجل: أربُّكَ عاتبكَ وأنت رسوله فيّ وأنا كافر به، فَنِعمَ الربُّ ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه، فأسلم.


سورة الحشر

سُورَةُ الحَشْر

المُعجزَةُ الدَّائمَةُ للْرِّسَالةِ الدَّائمَةِ

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ.. ﴿٧﴾ ﴾

[الحشر]

لأنه ﷺ أرسلَ إلى الناس كافة، وشاءت إرادة الله أن تكون رسالته هى الرسالة الخاتمة إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها فقد كانتْ معجزتُه على المستوى نفسه من الديمومة، فهى دائمةٌ وقائمة إلى أنْ تقومَ الساعةُ، على عكس معجزات الآخرين التى تحدث مرة وتنتهى، كما أنها معجزة لا تعتمد على الماديات فقط كما فى معجزات الرسل السابقين، لأن المحسوسات قد يختلف النظر إليها، أما المعقولات فهى القاسم المشترك عند الجميع.

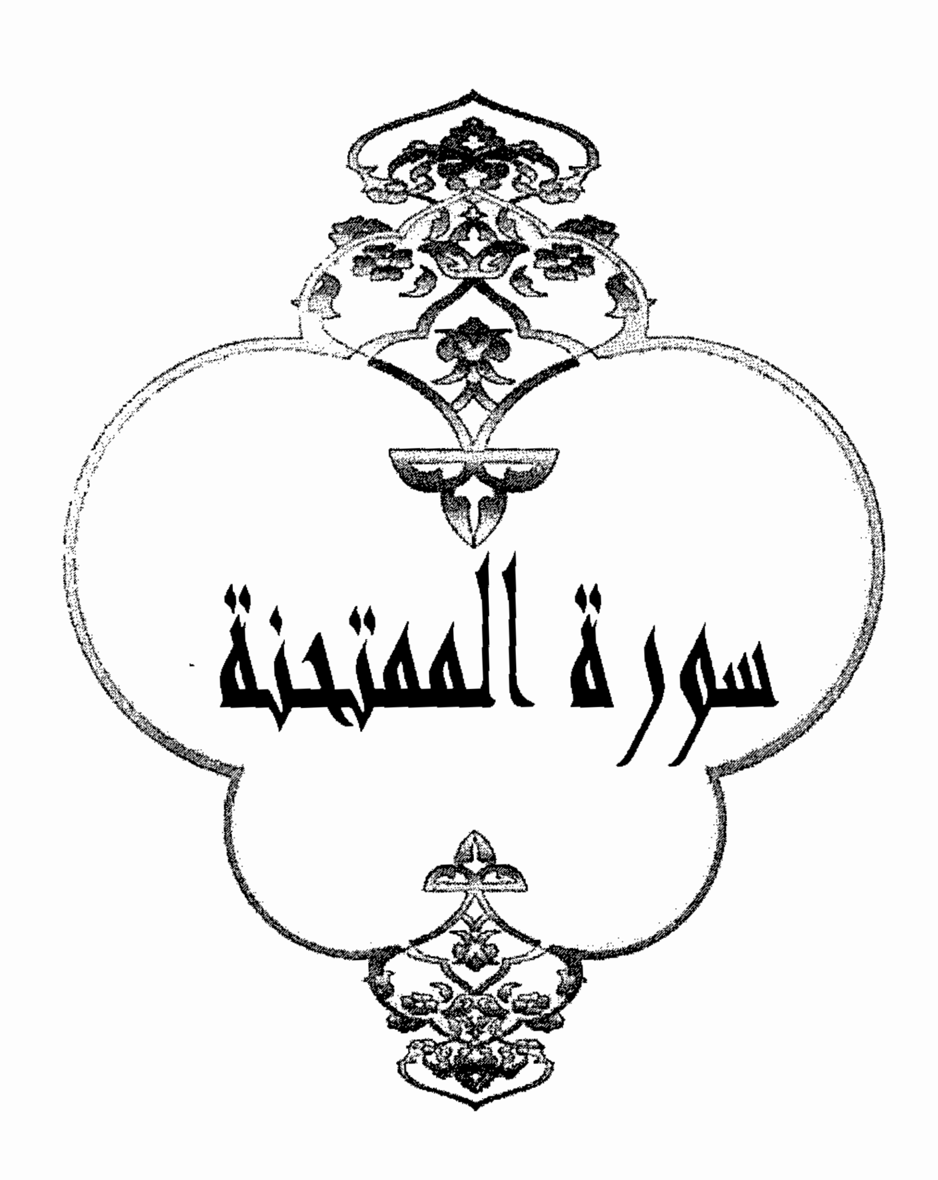
وفى موضوع التطبيق للمنهج نجد الرسل قد جاءوا لينقلوا أحكام الله إلى الناس وليس لهم أن يشرعوا، أما الرسول الخاتم ﷺ فهو الوحيد الذى منحه اللهُ هذه المزية، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ.. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

ذلك لأن المنهج السماوى هو وَضْع القوانين التي تحكم حركة الحياة في الخلافة في الأرض، وتلك القوانين نوعان: نوعٌ جاء من عند الله

وهو ما نجد كلَّ الرسل فيه سواء، والنوع الثانى: فوَّض اللهُ فيه رسولَ الله ﷺ أن يضع من التشريع ليلائم ما يرى، وهذا تفضيل للرسول ﷺ.

وهو ما يحرص أعداء الإسلام سواء من خارجه أو من داخله أنْ يسلبوه من الإسلام، فإنْ سلبوه ونجحوا انقضُّوا على آيات الله سبحانه وتعالى ليُخرجوها من مضامينها، كما يحدث الآن فى آيات الحجاب وغيرها من الآيات التى يُفسِّرها المغرضون، إما بتضييق حُكْمها على فئة معينة، وإما بتحميلها غير ما تحتمل من مَعان.

فإنْ قُلنا لأحدهم: إن السنةَ القولية والفعلية تُكذِّب ما يقول وتؤكد وتُفسِّر الهدف من الآية قال: إن القرآن يكفينا وشكَّكَ فى نَقَلة السنة وحفَّاظها، وقال القول الأعجب: هم رجالٌ ونحن رجال. والله يعلم أنه يكره القرآنَ كما يكره السنة، بل أشد.


سورة الممتحنة

سُورَةُ المُمْتحنَةِ

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ ﴾ [الممتحنة]

الذي يتعرَّض لأمر الدعوة يجب ألاَّ يُجرِّبَ الناسُ عليه أيَّ شيء من المخالفة، لذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟.. ﴾ [الممتحنة]

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء؟ لأنه إنْ قال شيئاً ثم عملَ بما يناقضه فقد يتصور مَنْ يراه أنه -والعياذ بالله- كذاب.

والفتنة: اختبار، وهي ليستْ مذمومة في ذاتها، بل المذموم أنْ تكونَ النتيجةُ في غير صالح منْ يمرُّ بالفتنة.

ويُقالُ: فتنتُ الذهب. أي: صَهرتُ الذهب واستخلصتُه من كلِّ الشوائب، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ليكون متماسكاً؛ لأن الذهبَ غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ.. ۝٨٨ ﴾ [هود]

أي: أنني أُطبِّق ما أدعوكم إليه على نفسي؛ فلا أنقص كيلا أو أخْسِر ميزاناً، ولا أبخس أحداً أشياءه؛ لأنِّي لا أعبد غيرَ الله.

وكلمة (أخالف) تدلُّ على اتجاهين متضادين، فإنْ كان قولك بهدف صَرْف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت تكون قد خالفته (إلى) كذا، وإنْ كنتَ تريده أنْ يفعل فعلاً كيْلا تفعله أنت تكون قد خالفته (عن) كذا.

فشعيب عليه السلام يُوضِّح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ليفعلها هو، بل ينهاهم
عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألاَّ يفعلَ تلك الأفعال، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج، وهو الذي أنزل عليه الرسالة.

وشعيبٌ عليه السلام لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً، فليس في نقص الكيل والميزان؛ أو الشرك بالله أدنى خير، فكلُّ تلك الأفعال هي الشرُّ نفسه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة]

ولا بُدَّ أنْ نُنبِّه إلى أنه إذا كانتْ هذه الآياتُ قد نزلتْ في اليهود، فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم، بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعاً وغير المؤمنين، فالعبرةُ ليستْ بخصوص الموضوع، ولكن العبرةَ بعموم اللفظ.

إن الكلام منطبقٌ هنا حتى على المسلمين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رآهم رسول الله ﷺ تُقرَضُ شفاههم بمقارض من نار. فسأل: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ فقال: خطباء الفتنة.

إنهم الذين يُزيِّنون لكل ظالم ظلمه، ويجعلون دينَ الله في خدمة أهواء البشر. وكان الأصل أنْ تخضعَ أهواءُ البشر لدين الله، وهؤلاء هم الذين يحاولون -تحت شعار التجديد- أنْ يجعلوا للناس حُجَّةً في أنْ يتحللوا من منهج الله، فهم يُبرِّرون ما يقع، ولا يتدبرون حساب الآخرة.

إن علماءَ الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبريرُ ما يقع من غيرهم، ومنهجُ الله لا يمكن أنْ يخضعَ أبداً لأهواء البشر. وعلى الذين يفعلون ذلك أنْ يتوبوا ويرجعوا إلى الله، ويحاولوا استدراكَ ما وقع منهم، لأن الرجوعَ إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل.

وقولُ الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة] يعطينا منهجاً آخرَ من مناهج الدعوة، لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله يريد أنْ يُخرجَ مَنْ لا يؤمن من حركة الباطل التي أَلِفَهَا.

وإخراجُ غير المؤمن من حركة الباطل أمرٌ شاقٌّ على نفسه، لأنه خروجٌ عن الذي اعتاده، وبُعدٌ عمَّا أَلِفَه، واعترافٌ أنه كان على باطل، لذلك فهو يكون مفتوحَ العينين على منْ بيَّنَ له طريقَ الإيمان ليرى هل يُطبِّق ذلك على نفسه أم لا؟

أيطبق النَّاهي عن المنكر ما يقوله؟ فإذا طبَّقه عرف أنه صادقٌ في الدعوة، وإذا لم يُطبِّقه كان ذلك عُذراً ليعودَ إلى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته.

إن الدينَ كلمةٌ تُقال وسلوكٌ يفعل. فـإذا انفصـلتْ الكلمـة عـن السلوك ضاعت الدعوة. فالله سـبحانه وتعـالى يقـول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]

لماذا؟ لأن مَنْ يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادعٌ وغشّاشٌ. وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك لا يمكن أنْ تبشرَ به غيرك، لذلك نقرأ في القرآن الكريم: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب]

فمنهج الدين وحده لا يكفي إلا بالتطبيق، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ حين يريد أنْ يُقنن أمراً في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه، ويقول لهم: لقد بدا لي أنْ آمرَ بكذا وكذا، والذي نفسي بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نَكالاً للمسلمين. وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة، لأنه يعلم من أين تأتي.

وفي الدعوة الإسلامية.. لابد أنْ يكون العلماءُ قدوةً لينصلح أمرُ الناس، ففي كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة إلا في الدين، فأنت إذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع، وقيل لك أنه يتناول الخمر. أو يفعل كذا. تقول: ما لي وسلوكه، أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك، ولكن لا شأنَ لي بسلوكه.

وكذلك كل علماء الأرض، ما عدا عالم الدين، فإذا كان هناك عالم يُبصرك بالطريق المستقيم، وتتلقى عنه علوم دينك، ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق.. أتستمع له؟ أبداً إنه يهبط من نظرك في الحال، ولا تحب أنْ تسمعه، ولا تجلس في مجلسه مهما كان علمه، فستقول له: كفاك دجلاً.

وهكذا فإن عالم الدين لا بُدَّ أنْ يكون قدوة، فلا ينهى عن منكر ويفعله، أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه، فالناس كلهم مُفتّحة أعينهم لما يصنع، والإسلام قبل أنْ ينتشرَ بالمنهج العلمي انتشر بالمنهج السلوكي. وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادتْه إليه.

فالذين نشروا الإسلام في الصين كان أغلبهم من التجار الذين تخلّقوا بأخلاق الإسلام، فجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت]

فالشرط الأول هو الدعوة إلى الله. والشرط الثاني العمل الصالح. وقوله ﴿ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته. ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام.

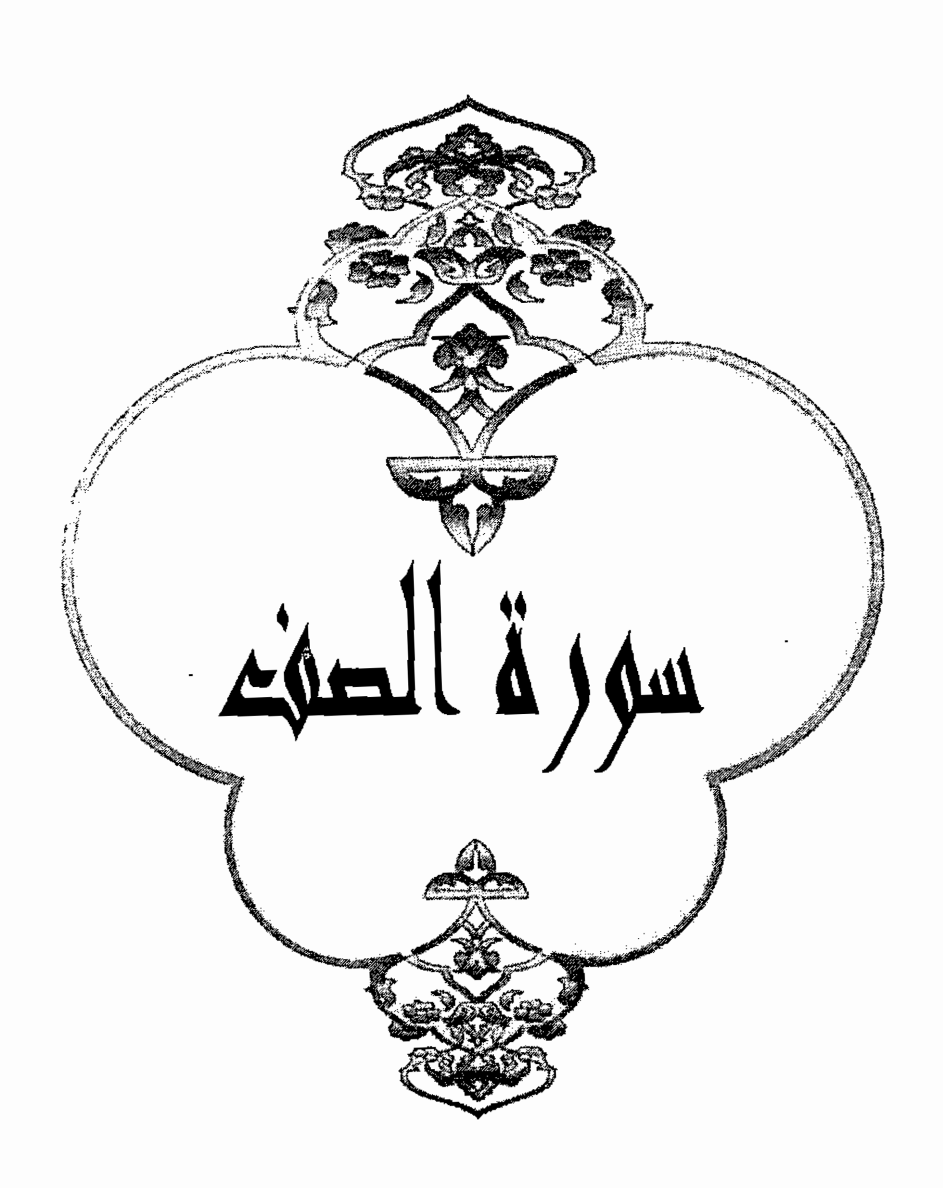
ولكن قولوا لي: أيُّ فائدة أنْ نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين؟

إذن فقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ.. ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة] يُذكر الله بأن اليهود يقولون ما لا يفعلون، ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله ﷺ وبالإسلام، لأن ذلك أمرٌ في التوراة،

ولكنهم نسُوا أنفسهم فهم أول مخالف للتوراة لأنهم لم يتبعوها، وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد.

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله ﷺ إلا أنهم لا يؤمنون، ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذي يتلونه، ولكنهم لا يفكرون بعقولهم، وإنما يريدون عُلواً في الأرض.

والآية لا تنطبق على اليهود وحدهم، بل على كلِّ مَنْ يسلك هذا السلوك.


سورة الصف

سورة الصف

حتَّى تنجحَ الدَّعوة

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف]

الدين كلمة تُقال وسلوك يُفعل، فإذا انفصلتْ الكلمةُ عن السلوك ضاعتْ الدعوة لذلك، فإن الله وصف انفصال الكلمة عن الفعل فى الدعوة إلى الله بالمقت الكبير فى قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف]

ذلك لأن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله يريد أنْ يخرج من غير المؤمن حركةَ الباطل التى ألفَهَا، وهو شاقّ على نفس مَن تعوَّد الباطل لأنه خروجٌ على ما اعتاده، وبُعْدٌ عمَّا ألفهَا، واعترافٌ بأنه كان على باطل.

لذلك فإنه يكونُ مفتوحَ العينين على مَن بيَّنَ له طريق الإيمان ليرى هل يُطبق ذلك على نفسه أم لا؟ فإذا وجده يُطبّقه عرف أنه صادقٌ فيما يدعو له؟ وإذا وجده يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر كان ذلك عذراً يتذرَّع به ليعود إلى باطله الذى ألفه وسيطرَ على حركة حياته، ويتصوَّر أن الداعى إلى الحق مخادعٌ وغشَّاش.

إذن: فمنهج الدين وحده لا يكفى إلا بالتطبيق، لذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان

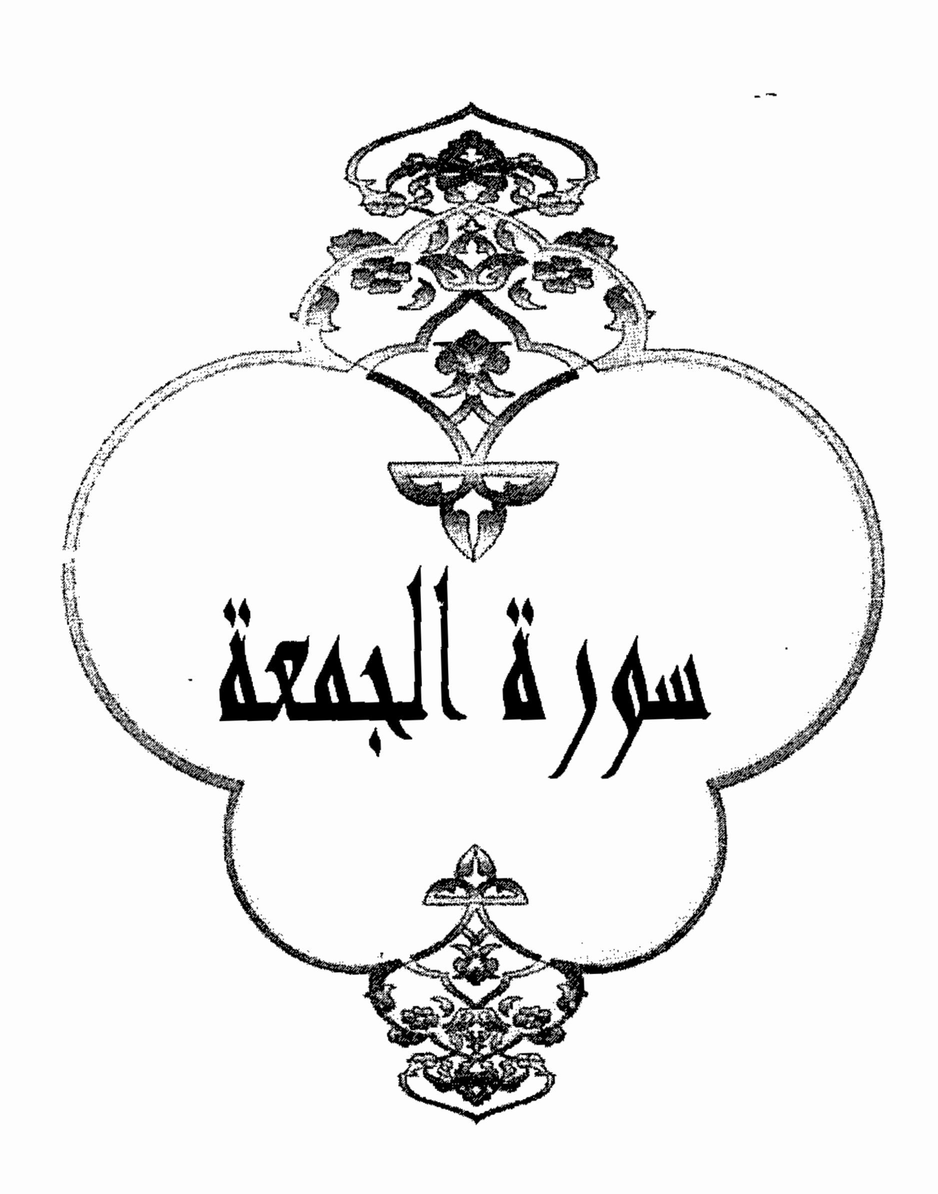
المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً، وكان عمر بن الخطاب ﷺ حين يريد أنْ يُقننَ أمراً فى الإسلام يأتى بأهله وأقاربه ويقول لهم: لقد بدا لى أن آمرَ بكذا وكذا، والذى نفسى بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين.

وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة لأنه يعلم من أين تأتى.

وعلى هذا فلكىْ ينجحَ الدعاة لا بدَّ أنْ يكون العلماءُ قدوة لينصلحَ أمر الناس، ففى كلِّ علوم الدنيا القدوة ليستْ مطلوبة، إلا فى الدين فإذا ذكر عالم كيمياء بارع وقيل إنه يتناول الخمر فلا يكترث الناس بسلوكه، وكذلك كل علماء الأرض، ما عدا عالم الدين الذى لا بدَّ أنْ يكونَ قدوة فلا ينهى عن منكر ويفعله، أو يأمر بمعروف، وهو لا ينفذه.

والإسلام قبل أنْ ينتشرَ بالمنهج العلمى انتشر بالمنهج السلوكى، وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أُسْوة سُلوكية قادته إليه، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت]

فالشرط الأول فى حُسْن القوْل: هو الدعوة إلى الله، والشرط الثانى: هو العمل الصالح. وقوله: ﴿ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت] لم ينسب الفضلَ للشخص ولكنه نسبه إلى الإسلام، ولكن أىّ فائدة لو قلنا إننا من المسلمين ولم نعمل بأعمالهم؟


سورة الجمعة

سورة الجمعة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾

هناك يومان في الأسبوع ذُكرا في القرآن بالاسم، وهما يوم الجمعة والسبت، بينما أيام الأسبوع سبعة، خمسة أيام منها لم تُذكر في القرآن بالاسم، وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه اجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجماعة، ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد، فأيامُ الأسبوع نُسبتْ إلى الأعداد، فيما عدا الجمعة والسبت.

لذلك تجد الأحدَ منسوباً إلى واحد، والاثنين منسوب إلى إثنين، والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة، والأربعاء منسوبٌ إلى أربعة، والخميس منسوبٌ إلى خمسة.

كان المفروضُ أنْ يُنسبَ يومُ الجمعة إلى ستة، ولكنه لم يُنسب.. لماذا؟ لأنه اليومُ الذي اجتمع فيه للكون نظامُ وجوده، فسماه اللهُ تبارك وتعالى الجمعةَ وجعله لنا عيداً.

والعيد هو اجتماع كلِّ الكون في هذا اليوم، اجتماع نعمة الله في إيجاد الكون وتمامها في ذلك اليوم، فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خَلْق الكون لهم.

فالأسبوع فيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيهما العدد: (يوم الجمعة) و (يوم السبت)، وهذان اللفظان أخذا معاني غير العددية، ولكنهما يأخذان معنى العددية بالبَعدية أو القَبلية.

يعني: عندما نقول مثلاً (الخميس) فيكون يوم الجمعة يعني: ستة، إنما لم يقل (ستة) وقال (الجمعة). ويوم (السبت) يكون سبعة، إذن: فأنت تستطيع أنْ تصنع العدد البَعدي بعد الأعداد: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة.

لكننا نجد أن لهما اسمين مختلفين ؛ لأن في كل واحد منهما حدثاً غلب العددية. فـ (الجمعة) للاجتماع، فتركنا كلمة (ستة) وأخذنا بدلاً منها (الجمعة)، و (السبت) للسكون؛ لأن مادتها في اللغة: سبتَ يسبت، أي: سكن وهدأ ولم يتحرك، مثل قول الحق: { وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً} [النبأ: 9]. أي: سُكوناً وهدوءاً.

والحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أنْ يجتمعوا كلَّ أسبوع مرة؛ لأنك قد تُصلي فرضاً فرضاً في مصنعك أو في مزرعتك أو في أيِّ مكان، إنما يوم الجمعة لا بد أنْ تجتمعَ مع غيرك، لماذا؟

لأنه من الجائز أنك تذلّ لله بينك وبينه، تخضع وتسجد وتبكي بينك وبين الله، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس، لترى كل منْ له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله.

وفي الحج ترى كل منْ له جاهٌ ورئاسة يؤدي المناسك مثلك، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له: لقد استويْنا في العبودية، فلا يرتفع أحدٌ على أحد ولا يذلّ له، بل كلنا عبيدُ الله ونخضع له وحده.

وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات، وحتّم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع، لماذا؟ حتى يرانا كلُّ العبيد لله عبيداً لله، فلا يعبد واحدٌ ربنا سراً، وبعد ذلك لا يرى أحدٌ منا أحداً، فكلنا نسجد لله ولا بدَّ من إعلان الولاء لله، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلانُ الولاء له سبحانه.

والعبادة هي إطاعة العابد لأمر المعبود، وهكذا يجب أنْ نفطنَ إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمَن استطاع إليه سبيلاً.

إن هذه هي أركان الإسلام، ولا يستقيم أنْ ينفصلَ الإنسانُ المسلمُ عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية، إن الأركانَ التعبدية لازمةٌ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تُقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا، ويجب أنْ نفطنَ إلى أن العبادة في الدنيا هي كلُّ حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون.

ويجب أنْ نعرفَ أن الأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحي وضعه العلماء في الفقه كباب العبادات وباب المعاملات، لكن علينا أنْ نعرف أنَّ كلَّ شيء يأمر به الله اسمه (عبادة).

إذن: فالعبادة منها ما يصل العبدَ بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، خالق الكون، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

ولذلك قلنا: إنك حينما تتقبل من الله أمراً بعبادة ما، فانت تنفذه وانت موصولٌ بأسباب الله بحثاً عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة]

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ، إنما أخذ الإنسان من عمل، هو البيع.

ولو نظرنا إلى دقَّة الأداء في البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق. إن كلام الله يصل في دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر، فلم يَقُلْ الله مثلاً (اتركوا الصنعة) (اتركوا الحرث)، ولكن الحقَّ جاء بالبيع هنا لأنه قمةُ النفعية العاجلة.

إن الذي يحرث ويزرع ينتظر وقتاً قد يطول حتى تنضج الثمار، لكن الذي يبيع شيئاً، فإنه ينال المنفعةَ فوراً، لقد جاء الأمرث بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة، ويتضمن هذا الأمر تركَ كلٍّ الأمور التي قد تأتي ثمراتُها من بعد ذلك لأداء الصلاة.

إن البيع هو التعبير الدقيق، لأن المتكلم هو الله، والحق لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء، لأن الشاري قد يشتري وهو كاره، لكن البائع يملؤه السرور وهو يبيع، فقد يذهب رجلٌ لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان

فيُسرع إلى الصلاة، ويقول لأهله من بعد ذلك: لقد ذهبتُ إلى الشراء، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة.

ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع نقوداً، لكن البائعَ يستفيد بقمة الفائدة، لذلك يُخرجنا الحق من قمة كل الأعمال ونهاية كل الأعمال، وهي مبادلة السلع بأثمانها.

لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغي من فضل الله، ولذلك يكون الانتشار في الأرض والبحث عن الرزق عبادة.

ولننظر إلى الدقة في قوله الحق: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إن الانتشار يعني أنْ ينساحَ البشرُ لينتظموا في كلِّ حركات الحياة، وبذلك تعمر كل حركة فيها، إن كل حركة في الحياة هي عبادة.

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ، بل من عمل، ولكن لماذا قال سبحانه: ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ﴾.. لماذا البيع بالذات؟

قالوا: لأن البيع هو غايةُ كل حركات الحياة، فهو واسطةٌ بين مُنتج ومُستهلك.. ولم يَقُل القرآن: اتركوا المصانع أو الحقول، لأن هناك

أشياء لا تأتي ثمرتُها في ساعتها، فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع، والصانع ينتظر إلى أنْ يبيعَ صناعته.

لكن البيع صفقةٌ حاضرة، فهي محلّ الاهتمام. وكذلك لم يَقُلْ: ذروا الشراء، قالوا: لأن البائع يحب أنْ يبيعَ، ولكن المشتري قد يشتري وهو كاره، فأتى القرآنُ بأدقِّ شيء يمكن أنْ يربطك بالزمن، وهو البيع.

فإذا ما انقضتْ الصلاةُ أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة]


سورة المنافقون

سورة المنافقون

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ ﴾ [المنافقون]

ذكْر الله سبحانه وتعالى يجعلك في رُكن ركين، لا يصل إليك مكروهٌ ولا شرّ، إن ذكرَ الله المنعم يعطينا حركةَ الحياة في كل شيء، فذكر الله يُوجد في القلوب الخشوعَ، ويُقلل من المعاصي، وينتفع الناسُ كلٌّ الناس به، ويجعل حركةَ الحياة مستقيمةً.

فذكْر الله وشُكره واجبٌ بالفطرة السليمة، لا يحتاج إلى تعقيدات وفلسفات.

وقد قال علي كرّم الله وجهه: ((كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر)). وفي الحديث: ((كان رسول الله يُكثر الذكرَ)).

. لماذا؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطالُ حركة بحركة، فمَنْ كان قائماً فقعد فقد أدّى حركة هي القعود، ومَنْ كان جالساً فقام فقد أدّى حركة هي القيام.

وكان رسول الله ﷺ يذكر الله في كل حركة، شاكراً نعمة الخالق عزّ وجلّ، والإنسانُ منا يستطيع أنْ يسألَ نفسه: كم عضلة يُحرّكها الإنسان حتى يقعد أو يقوم؟

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاعَ الجسم أو جلوسه، وهي أعدادٌ لا يعرفها الإنسان.

فما الذي جعل هذه الأجهزة الصَّماء تفهم مراد الإنسان، وبمجرد أن يحاول الإنسانُ القيام فإنه يقوم، وبمجرد أنْ يحاول الإنسانُ القعود فإنه يقعد؟ إنك إذا رفعتَ يدك لا تعرف ما هي العضلات التي تتحرك لترفع اليد.

وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر: " وفيك انطوى العالمِ الأكبر . كأن العالم الكبير قد انطوى وصار في داخلك أنت، إنك إنْ أردت انّ تنام فإنك تنام، وإنْ أحببتَ أن تقومَ فتقوم.

ويُبيِّن لك الحقُّ سبحانه أن أوامرك لعضلاتك وتحكُّمك في مملكة جسدك هي من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك، فتجد أنه سبحانه قد سلب أحداً غيرك القدرةَ على رفع الذراع.

وإياك أنْ تظن أن الحركة قد واتتْك لمجرد أن لك يداً، لا إن غيرك قد تكون له يد، لكنه لا يستطيع أنْ يأمرها فتتحرك، وهكذا نعرف أن كلَّ الإرادات في النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان.

قال ﷺ: ((إذا استيقظ أحدكم فليقُلْ: الحمد لله الذي ردّ عليّ رُوحي وعافاني في جسدي وأذِن لي بذكره)).

إنه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود، ورسولنا ﷺ يُعلّمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أنْ نذكر الذي خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة.

وليسأل كلٌّ منا نفسه: كم حركة يتطلبها أمرٌ من الإنسان بأنْ يحُكّ ظهره مثلاً؟ إنه عددٌ غير معروف من الحركات. وهكذا علينا أنْ نُحسن الأدب مع الله بأنْ نذكره في كل حركة، فهو الذي خلق كلَّ إنسان منا صالحاً لكلِّ هذه القدرات.

ونعود إلى وصف علي كرم الله وجهه مجلسَ الرسول ﷺ: ((كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر)).

ويُنبهنا أنْ نداوم على ذكره، فكأنه يقول: إياكم أنْ تلهيَكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله، أو تعتقدوا أن ذكرَ الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذكر الله في كل أحداث الحياة، فإن فعلتم ذلك وذكرتم اللهَ كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به، وهكذا تكون الصلةُ دائمةً بينك وبين الله عزَّ وجلَّ في كل وقت.

مثال ذلك ما حدث في عام 1973 في معركة العاشر من رمضان، كان ذكرُ الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم: (الله أكبر) طاقة هائلة واجهوا بها العدو، واقتحموا خطَّ بارليف.

وأعانهم الحقُّ سبحانه وتعالى بمدد الإيمان من عنده، وأوجد في نفس كلٍّ منهم طاقةً هائلة تحقق بها النصر، وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى.

﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا.. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة] لأن ذكركم اللهَ سيصلكم بالمَدد منه، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلاً لقيادة

حركة الحياة في الأرض، فتُوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل، وهذا هو ما يجب أنْ يكون مجالاً للفخر.

والذكر مطلقاً هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له، والتسبيح هو التنزيه لله، لأن ما فعله الله لا يمكن أنْ يحدث من سواه، فـ (سبحان الله) معناها تنزيه لله، لأنه القادرُ على أنْ يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر أحدٌ أنْ يصنعه.

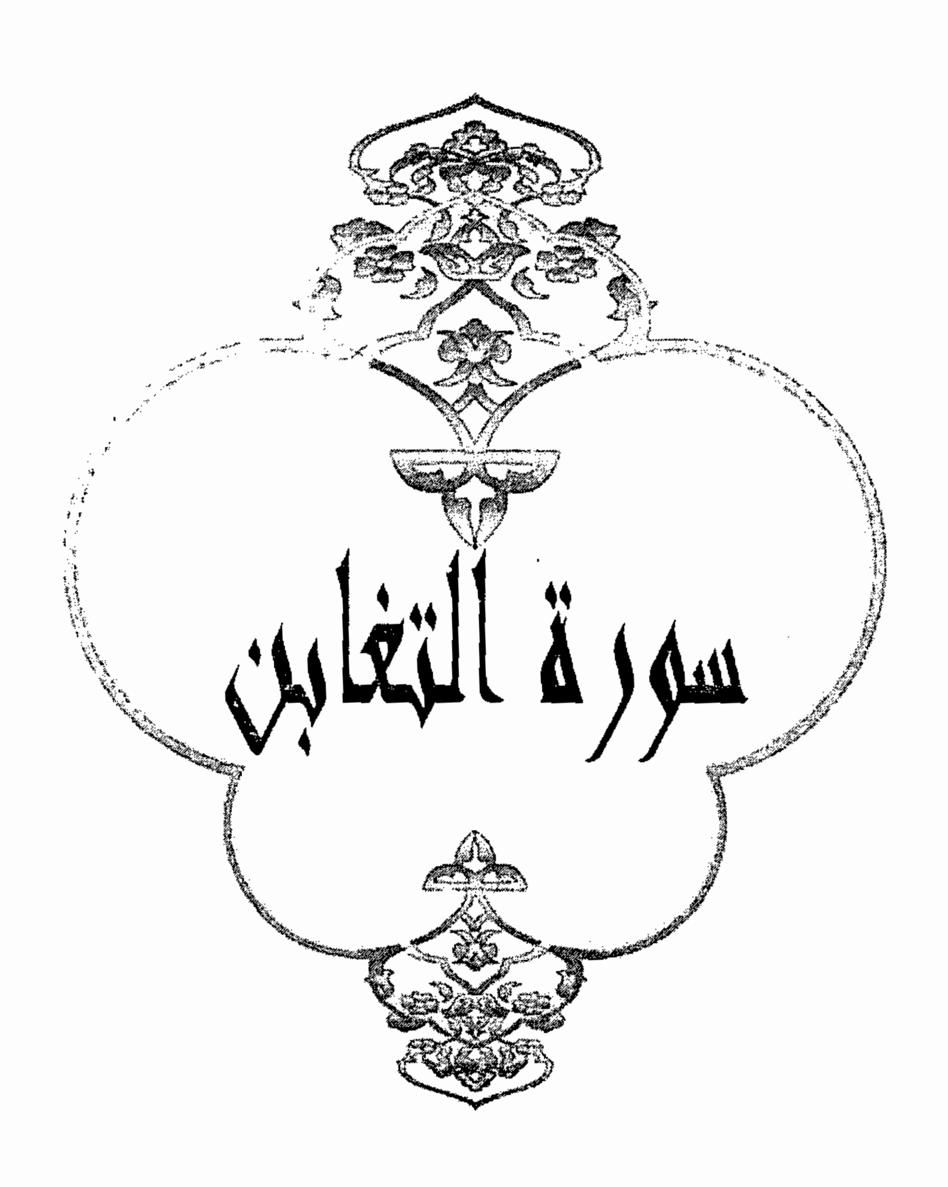
المؤمن مُطالبٌ أنْ يذكر اللهَ قائماً وقاعداً وعلى جَنْبه، وذلك لتكونَ الصلاةُ دائماً في بُؤرة شعور الإنسان، بل إن المؤمنَ مُطالبٌ بذكر الله حتى وهو يُسايف عدوه ويُنازله، فهو يحمل السيف ولسانُه رَطْبٌ بذكر الله ويقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم).

والإنسان حين يُسبّح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينساه الله، والمؤمن قد يُؤخر الصلاةَ في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به، ولكن عليه أنْ يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله.

ففي وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفي كلٍّ حال، وبعد أنْ يطمئن المسلمُ لموقفه القتالي فليقْضِ الصلاة، وأنه لا يترك ربه أبداً، بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أوْلَى؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه.

وإذا كان المسلم يعرف أن لله في أوقاته تجليات، فلا يحرمنَّ واحدٌ نفسه من هذه التجليات في أيِّ وقت، وذكْر الله يُقرِّب العبدَ من مولاه،

فسبحانه مع عبده إذا ذكره، فإنْ كان الإنسان مُشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر اللهَ ليُدعم موقفه بالقوة العليا.


سورة التغابن

سورة التغابن

﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

الله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران]

ولكن منْ يستطيع أنْ يتقي الله سبحانه حقَّ تُقاته، فذلك صَعبٌ على المسلمين، ولذلك عندما نزلتْ الآية قالوا: ليس منا مَنْ يستطيع أنْ يتقي اللهَ حَقَّ تُقاته، فنزلتْ الآية الكريمة:

﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

الذي يتقي الله حقَّ تُقاته خيرٌ، أم الذي يتقي الله ما استطاع؟ طبعاً حقَّ تُقاته خيرٌ من قدر الاستطاعة، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ... ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة] نقول: إنك لم تفهم عن الله قوله ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران] في الآية الأولى، أو ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ في الآية الثانية.. أي الحالتين أحسن؟ نقول: إن العبرة بالنتيجة.

عندما تريد أنْ تُقيم شيئا لا بدَّ أنْ تبحث عن نتيجته أولاً، ولنُقرِّب المعنى للأذهان سنضرب مثلاً، ولله المثل الأعلى، نفرض أن هناك تاجراً يبيع السلع بربح خمسين في المائة، ثم جاء تاجرٌ آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة·· ماذا يحدث؟

سيُقبل الناسُ طبعاً على ذلك الذي يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترون منه كلَّ ما يريدون، والتاجر الذي يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحاً أكبر·· ولكن الذي يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحاً أقلَّ، ولكن بزيادة الكمية المَبيعة·· يكون الربحُ في النهاية أكبر·

والذي يطبق الآية الكريمة: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران] يحقق خيراً أكبر في عمله، ولكنه لا يستطيع أنْ يتقي الله حقَّ تُقاته إلا في أعماله محدودة جداً·

إذن: الخير هنا أكبر، ولكن العمل الذي تنطبق عليه الآية محدود·

أما قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن] فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة·· ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإنْ كان الأجرُ عليها أقلَّ·

عندما نأتي إلى النتيجة العامة·· أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً·· وأعمال أجرها أقلّ ولكنها كثيرة·· أيّهما فيه الخير؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع·

إذن: فقد نُسختْ هذه الآيةُ بما هو خيرٌ منها، رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك، لأن اتقاء الله حقَّ تقاته خيرٌ من اتقاء الله قدرَ الاستطاعة، ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التي نصَّتْ على الاستطاعة.

وقيل في معنى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران] أي: أنه لا تأخذك في الله لومة لائم، أو أن تقول الحق ولو على نفسك. هذا ما يُقال عنه (حق التقى)، أي: التقى الحق الذي يعتبر تقى بحقٍّ وصدق.

وقال العلماء: إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة استضعف الصحابةُ نفوسهم أمام مطلوبها، فقال بعضهم: مَنْ يقدر على حقِّ التُّقى؟ وقد أنزل الله بعد ذلك: ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

فهل معنى هذا أن الله كلف الناسَ أولاً ما لا يستطيعون، ثم قال من بعد ذلك: ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]؟ لا، فالحقُّ سبحانه لا يكلف إلا بما في الوُسْع، والناس قد تُخطيء الفهم لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن] فيقول العبد: أنا غير مستطيع أنْ أقوم بذلك التكليف، ويظن هذا العبد أن التكليفَ يسقط عنه.

لا، إن هذا فَهْمٌ خاطيء؛ إن قوله الحق: ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن] أي: إنك تتقي اللهَ بما كان في استطاعتك من الوُسْع، فما باستطاعتك أنْ تقوم به عليك أنْ تقوم به، فلا

يهرب أحدٌ إلى المعنى المناقض ويقول: أنا غيرُ مستطيع لأن الله يعلم حدود استطاعتك.

وساعةَ تكون غيرَ مستطيع فهو سبحانه الذي يخفف.. إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعتك أو لا، وساعةَ يكون الأمرُ خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذي يُخفِّف عنك.

ولذلك فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القولَ الحق: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] في غير موضعه؛ لأن الإنسانَ لا يستطيعُ أنْ يُقدِّر الوُسْع، ثم يبني التكليف على الوُسْع.

بل عليك أنْ تفهمَ أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس، وهو الذي أنزل التكليفَ لوُسْع النفس، وما دام الخالقُ للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج.

إنه سبحانه الذي كلَّفَ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت، ولذلك فهو لا يُكلف نفساً إلا وُسْعها، فإنْ كان سبحانه قد كلف فاعلم أيها العبدُ أنه سبحانه قد كلفَ بما في وُسْعك.

وعندما يحدث للإنسان ما يشقُّ عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تاماً فهو سبحانه يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرُّخص. مثال ذلك: المريض أو الذي على سفر، له رخصة الإفطار في رمضان، والمسافر له أنْ يقصرَ الصلاةَ.

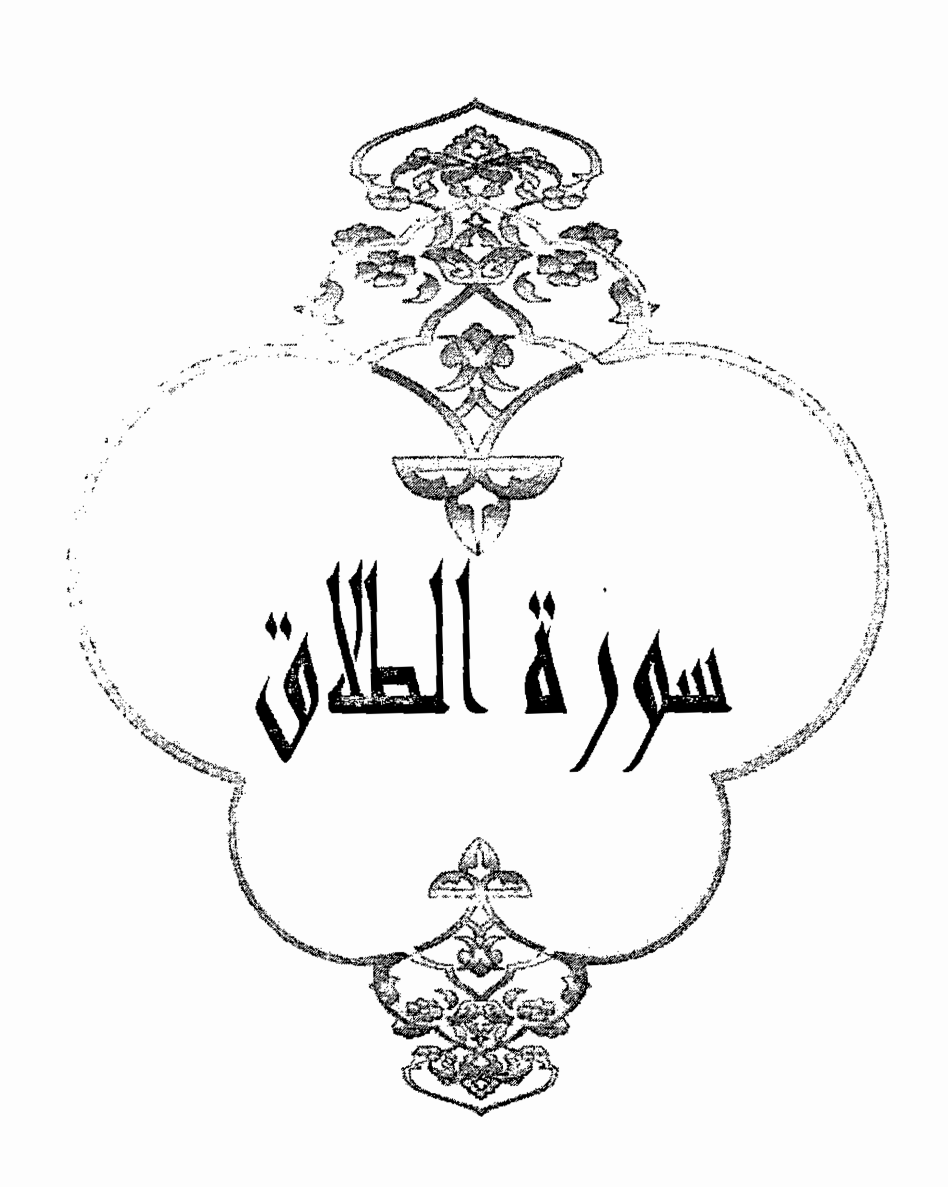
إذن: فالله سبحانه هو الذي علم حدود وُسْع النفس التي خلقها، ولذلك لا تقدر وسعك أولاً ثم تقدر التكليف عليه، ولكن قدّر التكليفَ أولاً، وقُلْ: ما دام الحق قد كلف فذلك في الوُسْع.

فلولا نزول هذه الآية لتعبَ المسلمون تماماً، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أنْ قال: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران]

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. ﴾ [التغابن]

إذن: فالأمرُ بالاستقامة هو أمرٌ بدقة الأداء المطلوب لله أمرا ونهيا، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

وهكذا تتطلب الاستقامةُ كاملَ اليقظة وعدم الغفلة. ويقول الحق سبحانه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ.. ﴾ [هود]


سورة الطلاق

سورة الطلاق

التقوى.. والرزق

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾

[الطلاق]

لا يقولن أحدٌ: إن العملَ الباطل الحرام هو مصدرُ رزقي، ولن أستطيع العيشَ لو تركته سواء كان تلحيناً أو عَزفاً أو تأليفاً للأغاني الخليعة، أو الرقص، أو نَحْت التماثيل.

نقول له: لا.. لا تجعل هذا مصدراً لرزقك، والله يقول لك: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ.. ۝٢٨ ﴾ [التوبة] وأنت عندما تتقي الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ.. ۝٣ ﴾ [الطلاق]، وعليك أنْ تترك كلَّ عمل فيه معصية لله، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ.. ۝١٨٨ ﴾ [البقرة] تنبيه للناس ألا يُدخلوا في بطونهم وبطون منْ يعولون إلا مالاً من حق، ومالاً بحركة شريفة نظيفة.

وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.. ۝ ﴾ [الطلاق]

ولنا أنء نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحق، أي: أن الله يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ويستطيع أنْ يأكل منْ كلِّ ما في الكون من مطعم ومَشْرب، ولكن الأطباء يُحرِّمون عليه الأكل من أطعمة متعددة، لأن أكلها وبالٌ وخطر على صحته، وتكون النعمةُ أمامه وملكَ يديه، ولكنه لا يستطيع أنْ يأكلَ منها بحق.

وفي الوقت نفسه يتمتع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم، مثل هذا الإنسان نقول له: لا بُدَّ أنك أخذتَ شيئاً بالباطل فحرمكَ اللهُ من الحق.

ومن هنا نقول: مَنْ أكل بباطل جاع بحقٍّ. وكذلك نقول: مَنْ استغل وسيلة في باطل أراه اللهُ قُبْحها بحق، فالذي ظلم الناسَ بقوته وبعضلاته المفتولة لا بُدَّ أنْ يأتيَ عليه يومٌ يصبح ضعيفاً.

والمرأة التي تهز وسطها برشاقة لا بدَّ أنْ يأتي عليها يومٌ يتيبس وسطها فلا تصبح قادرةً على الحركة، والتي تُخايل الناس بجمال عيونها في اليمين والشمال لا بُدَّ أنْ يأتيها يومٌ وتعمى فلا ترى أحداً، وينفر الناسُ من دمامتها.

إن كل مَنْ أكل بباطل سيجوع بحقٍّ، وكل مَنْ استغل وسيلة بباطل أراه الله قُبحها بحق، واكتب قائمة أمامك لمَنْ تعرفهم، واستعرض حياة

كل مَنْ استغلَّ شيئاً ممّا خلقه اللهُ في إشاعة انحراف ما، أو جعله وسيلة لباطل لا بُدَّ أنْ يُريه اللهُ باطلاً فيه.

وأنا أريد الناسَ أنْ يعملوا قائمةً لكلٍّ المنحرفين عن منهج الله، ويتأملوا مسيرة حياتهم، وكلٌّ منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون؟ ومن أين يكتسبون؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أعمالَ الحلال والحرام، ويجعل حياتهم عبرةً له ولأولاده، كيف كانوا؟ وإلي أيِّ شيء أصبحوا؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلتْ.

ومن حُبنا لهؤلاء الناس نقول لهم: تداركوا أمرَ أنفسكم فلن تخدعوا الله في أنكم تجمعون المالَ الحرام، وبعد ذلك تُخرجون منه الصدقات، إن الله لن يقبل منكم عملكم هذا، لأن الله طيبٌ لا يقبلُ إلا الطيبَ.

ونحن نسمع عن كثير من المنحرفين في الحياة يذهبون للحج، ويُقيمون مساجد ويتصدقون، وكلٌّ ذلك بأموال مصدرها حرام، ولهؤلاء نقول: إن الله غنيٌّ عن عبادتكم، وعن صدقاتكم الحرام، وننصحهم بأن الله لا ينتظر منكم بناءَ بيوت له من حرام، أو التصدق على عباده من مال مُكتسب بغير حلال، لكنه سبحانه يريد منكم استقامةً على المنهج.

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب، فسبحانه يَهبُه ممّا فوق الأسباب.

وهذه مسألة تحدث لمن يتقي الله، وأتحدّى أنْ يوجد مؤمنٌ ليس في حياته مثل هذه الأمور ما دام يأخذ بالأسباب ويتقي الله، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرجَ قد جاء من حيث لا يحتسب؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن.

وهَبْ أنك سائرٌ في الطريق، وفي جيبك جنيه واحد، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن؟ نعم سوف تحزن، ولكن إنْ كان في بيتك عشرةُ جنيهات فحُزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه، ولو كان رصيدك في البنك ألفاً من الجنيهات، فلن تحزنَ على الجنيه الذي ضاع.

ومَنْ له رَبٌّ يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب سيجد الحل والفرج من أيِّ كرْب مِمَّا هو فوق الأسباب.

فإذا تأزمتْ معك أمورُ الحياة تلجأ إلى الله، كما كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ قام إلى الصلاة، وتأزُّم الأمور يأتي حينما نفقد نحن الأسباب المُعطاة من الله، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحِيَلُ لم يَبْق لك إلا أنْ تلجأ إلى المُسبِّب سبحانه.

ويقول أهل المعرفة: رِزْقك أعلمُ بمكانك منك بمكانه، يعني يعرف عنوانك، أما أنت فلا تعرف عنوانه، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تُرزَق منه بشيء، وقد ترى الزرع في الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير، وتبني عليه الآمال، فإذا بعاصفة أو آفة تأتي عليه، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق]

فالتوكل علامة إيمان الإنسان، وفائدة الإيمان أن الجوارحَ تعمل والقلوب تتوكل، معادلة جميلة ! الجوارح تقول: نزرع، نحرث، نأتي بالبذر الجيد، نروي، نضع سماداً ونفترض أن الصقيعَ قد يأتي ونخشى

على النبات منه، فنأتي بقشٍّ ونحوه ونُغطيه، كلُّ هذه عملُ الجوارح وبعد ذلك القلوب تتوكل.

فإياك أنْ تقول: المحصول آتٍ آتٍ لأنني أحسنتُ أسبابي، لا. لأن فوق الأسباب مُسَبِّبَها، فالجوارحُ تعمل والقلوبُ تتوكل، هذه فائدة الإيمان لأنني مؤمنٌ بإله له طلاقةُ القدرة، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب.

الأسباب لك يا بشر، أما الذي فوق الأسباب فهو الله، فأنت حين تعمل أخذتَ بالأسباب، وحين تتوكل ضمنتَ المُسبِّب، وهو الله سبحانه.

إذن: فالجوارحُ تعمل والقلوبُ تتوكل. إياك أنْ تظنَّ أن التوكل يعني أن تتركَ الجوارح بلا عمل، لا، فهذا هو التواكل أو الكسل، إنه التوكلُ الكاذب، والدليل على كذب منْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكل فيما فيه مشقة والسهل لا يُتوكَّل فيه.

ونقول للرجل الذي يدَّعي أنه يتوكل ولا يعمل: أنت لستَ متوكلاً، ولو كنتَ صادقاً في التوكل إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لقمة وتضعها في فمك. كُنْ متوكلاً كما تدّعي، ودَع التوكلَ يضع لك اللقمة في فمك، واترك التوكل ليمضغها لك!

وطبعاً لن يفعل ذلك، ولهذا نقول له أيضاً: إن ادعاءك التوكلَ هو بلادةُ حسٍّ إيمانيٍّ وليس توكلاً، والتوكل يقتضي إظهارَ عجز، فمعنى أنِّي أتوكل على الله أُنني استنفدتُ أسبابي، ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز، وهذا هو التوكل المطلق.

وفي حياتنا اليومية نسمع منْ يقول: أنا وكّلتُ فلاناً، أي: أنني لا أقدر على هذا الأمر فوكلتْ فلاناً. ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر، ولهذا ذهب إلى غير عاجز.

كذلك التوكل الإيماني، فالتوكل معناه: تسليمك زمام أمورك إلى الحقِّ سبحانه ثقةً بحُسْن تدبيره، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا ترد يدَ الله الممدودة بالأسباب، ثم تقول له: اعمل لي يا رب ن لأننا قلنا في سورة الفاتحة: إن الإنسانَ يدعو قائلاً: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ أي: نطلب منك المعونة التي نتقن بها العمل.

والمؤمن الذي يستقبل منهجَ الله بالفهم يجد الأسباب التي يجب أنْ يأخذها وسبحانه وتعالى هو المُسبِّب الأعلى، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل، فعلى الجوارح أنْ تحرثَ الأرض، وأنْ تختار البذرة الطيبة، وتنثرها في الأرض، ثم ترويها وتتعهدها.

وهذه العمليات اسمها الأسباب، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط، بل عليك أنْ تقول: إن فوق كلِّ الأسباب هناك المُسبِّبُ، فمن الجائز أنْ يخضرّ الزرعُ وينمو، ثم تأتي له آفةٌ من مطر أو حرٍّ وتضيعه.

ومنْ ينقل التوكل إلى الجوارح. نقول له: أنت تواكلت، أي: نقلت عمل القلب إلى الجوارح. ومَنْء يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس، لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه مُتوكل على الله.

ولو كان الواحدُ من هؤلاء صادقاً في توكله على الله لأخذ بالأسباب. وعادةً فإنِّي دائماً أقول لمَنْ يدّعي التوكلَ مع الكسل: لماذا لا تترك الطعامَ يأتي إلى فمك، لماذا تمدّ إليه يديك؟

إن منْ يكسل إنما يكذب في التوكل، فلا أحدَ مثلاً يترك قطعةَ اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه، لكنه يأخذها بيده، ويمضغها بأسنانه، ويبلعها بعد المضغ، ولو كان صادقاً في أن التوكلَ هو ألاَّ تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك.

لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه، ولا يستعملها في الأمور التي تتعبه.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ [الأنفال]

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بأن الأسبابَ من خَلْق الله، وحين يأخذ المؤمنُ بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجىءٌ إلى الله ومعتمدٌ عليه، لكن انْ عزَّتْ عليه الأسبابُ فهو يعلم أن له رباً.

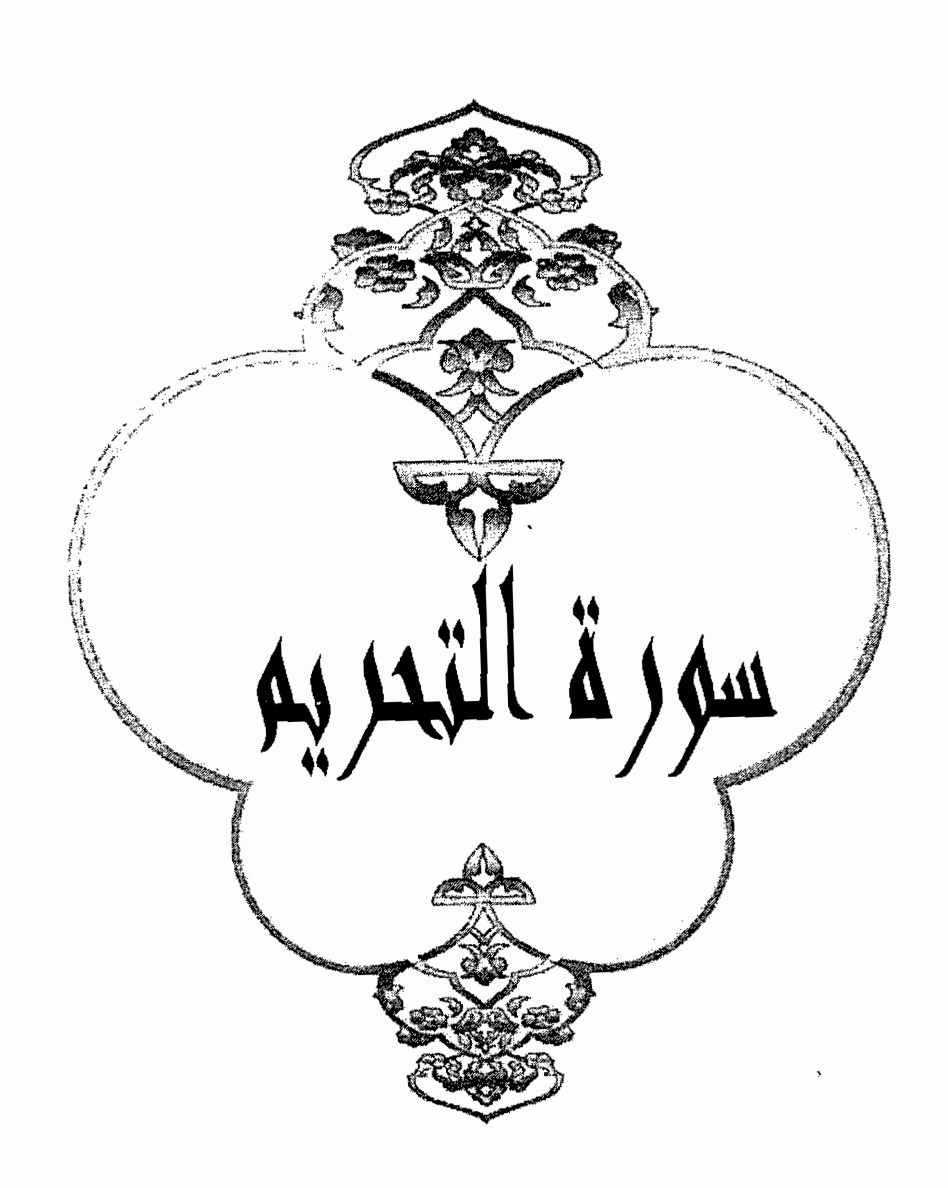
ولذلك قال: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ والربُّ هو الخالق من عَدم، والمُمدّ من عُدْم، وما دام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أنْ يُكلفك، فهل من المعقول أنْ يظلمك؟ طبعاً لا.. لكن عليك أنْ تفطنَ أنه لك جوارح، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله.

وتأتي الآية التالية لتوضح عمل الجوارح، وهي تحمل الصّفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [الأنفال]

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة عملُ جوارح، وكذلك الزكاة هي عملٌ ناتجٌ من عمل سبق، فحتى تخرج الزكاة لا بدَّ أنْ تبذلَ الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب.

ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة، وهذه بطبيعة الحال غيرُ زكاة الزروع التي تُخْرَج في يوم الحصاد. ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ.. ﴾ [الأنعام]

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مُقترنتان ببعضهما، ولا تجد آية فيها ذكرٌ للصلاة إلا وفيها ذكرٌ للزكاة أيضاً، لأن الصلاةَ تعني ترك أمورِكَ الحياتية التي تسعى فيها لدنيا الأسباب، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه، أي: أنك قد اقتطعتَ جزءاً من الزمن الذي كنتَ تقضيه في حركة حياتك لتقفَ فيه أمام ربك خالق الأسباب.


سورة التحريم

سُورَة التَّحْرِيم

صِفَاتُ الجَمَالِ.. وَصِفَاتُ الجَلالِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ.. ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

لله سبحانه وتعالى صفاتُ جمالٍ وصفاتُ جلالٍ، وصفاتُ الجلال نجدها فى: القهار، والجبَّار، والمُذلّ، والمُنتقم، والضَّار، وتُعتبر النارُ من مُتعلِّقات صفات الجلال.

وهو ما يُفسِّر الأمر باتقاء الله فى القرآن فى بعض المواضع، وفى بعضها الآخر الأمر باتقاء النار، مثلما جاء فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ.. ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

واتقاءُ الله هو اتقاءٌ لصفات الجلال، واتقاءُ النارِ هو اتقاءُ ما يتعلّق بصفات الجلال، وعلى الإنسان أنْ يَقِيَ نفسه من صفات الجلال كلها، لأنه قد يكون من مُتعلِّقاتها ما هو أشدُّ إيلاماً من النار.

وكان الله سبحانه يقول: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة] ويقول: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أى: نتقى غضبَ الله سبحانه وتعالى الذى يُؤدِّى بنا إلى أنْ نتقى كُلَّ صفات جلاله، ونجعل بيننا وبينها وقاية.

فمَنِ اتَّقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله، لذلك يقول رسول الله ﷺ ((إذا كانت آخرُ ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة)).

فما هى صفات الجمال؟

صفات الجمال هى: الغفار، والرحيم، والرحمن، والعفوُّ، وغيرها من الصفات التى تتنزّل بها رحماتُ الله وعطاءاته على خلقه.

وفى الحديث كان المنطق أنْ يقول: ((تجلَّى الرحمنُ بالمغفرة))، ولكن ما دامتْ هناك ذنوبٌ فالمقام لصفة الجبار الذى يُعذِّب خَلْقه بذنوبهم، فكأنّ صفة الغفار لتشفع عندها، فيغفر اللهُ للعاصين ذُنوبهم.

وجمالُ المقابلة هنا حينما يتجلَّى الجبَّار بجبروته بالمغفرة، لأن كلمة جبَّار تحمل الشعورَ بالفزع والخوف والرعب، فعندما تأتى من الجبار بالمغفرة فتكون سعادة الإنسان.

والوقاية هي الاحتراس والبُعد عن الشر، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ.. ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

أي: اعملوا بينكم وبين النار وقاية، احترسوا من أنْ تقعوا فيها.. ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحقّ سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم -والقرآن كله كلامُ الله- (اتقوا الله) ويقول: (اتقوا النار). كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحقّ سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيُعذَّب فيها الكافرون؟!

الإنسان يقي نفسه بأنْ يجعلَ الآمرَ يُوجِّه الأمرَ للمأمور، ويجعل المأمورَ يطيع الآمر، ودليلُ ذلك قوْل الحق عن قابيل: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة]

أي: أن جُزءًا من الذات هو الذي طوَّع بقية ذات قابيل لتقتلَ هابيل، فقد خلق اللهُ النفسَ البشرية كمَلكات متعددة، ملكة تحب الأريحية، وأخرى تحب الشحَّ، والملكةُ التي تحب الأريحيةَ إنما تطلب ثناء الناس، والتي تحبُّ الشحّ إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يُغنيه.

وكلتا الملكتين تتصارع في النفس الواحدة ؛ لذلك يقول الحق: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فالنفس تقي النفس لأن الملكات فيها متعددة. وبعض الملكات تحب تحقيقَ المتعة والشهوة، لكن هناك مَلكةٌ إيمانية تقول: تذكَّرْ أن هذه الشهوات عاجلةٌ، ولكنها عظيمةُ المتاعب فيما بعد.

والآية تؤكد مسئوليتنا عن أهلينا، ويقول الحق سبحانه في آية أخرى:

﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه]

هنا يعطينا الحق -تبارك وتعالى- منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه فـ... أنْ يُصلحَ الدوائر الأخرى المباشرة له.

فقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾ [طه] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء الكون، فإذا ما صلُحَتْ الوحدةُ الأولى في بناء الكون، فأمر كلٌّ واحد أهله بالصلاة، واستقام الكونُ كله وصلُح حال الجميع.

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحدِّ إنما ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طـه]، لأن في الصلاة مشقةً تحتاج إلى صبر، فالصلاةُ تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سببُ الخير والنفْع لك، فلا بُدَّ إذن من صَبر عليها.

وفَرْقٌ بين اصبر واصطبر: اصبر الفعل العادي، إنما اصطبر فيها مبالغة. أي: تكلَّف حتى الصبر وتعمَّده.

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ في أذهانهم أهمية الصلاة، فمثلاً تدخل البيتَ فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك: انتظروني دقائقَ حتى أُصلي، هنا يلتفت الأولادُ إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل، وتغرس في نفوسهم مهابةَ التكليف، واحترامَ فريضة الصلاة، والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان.

وكان سيدنا عمر ﷺ يقوم من الليل يصلي ما شاء الله له أنْ يصلي حتى يؤذن للفجر، فيُوقظ أهله للصلاة، فإنْ أبَوْا رَشَّ في وجوههم الماء، لأن الصلاةَ خَيْرٌ من النوم، فالنومُ في مثل هذا الوقت فيه راحةٌ للبدن، أمّا الصلاةُ فهي أفضل وأعظم، ويكفي أنك تكون فيها في حضرة الله تعالى.

وهَبْ أن ربَّ الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام، ثم فجأة قالوا: أبوكم جاء، فترى الجميعَ يُهرولون إليه، وهكذا لله المَثَلُ الأعلى، إذا دعاك فلا تتخلّف عن دعوته، بل هَرْول إليه وأسرع إلى تلبية ندائه، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنتَ لا تردّ عليه ولا تجيبه، أعتقد أنه شيءٌ غيرُ مقبول، ولا يرضاه صاحبك.

إذن: عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترامَ هذا النداء، وبمجرد أنْ يسمعوا (الله أكبر) يُلبُّون النداء، ولا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر، فالله لا يبارك في عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر)، لأنك انشغلت بالنعمة عن المُنعم عزَّ وجلَّ.

لذلك إنْ أردتَ أنْ تعرف خيرَ عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر)، إنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلةً، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد، وليس كذلك مَنْ يأتي الصلاة دُبُراً، وبمجرد السلام يُسرع إلى الانصراف.

ويُروى أن سيدنا محمد رسول الله ﷺ عابَ على أحد الصحابة إسراعه في الانصراف من المسجد بعد السلام، فتعمَّد رسولُ الله أنْ يناديه في إحدى المرات، قال: أزهداً فيناً؟

وهل هناك مَنْ يزهد في رؤية رسول الله والجلوس معه؟

فقال الرجل: لا يا رسول الله، ولكن لي زوجةٌ بالبيت تنتظر ثوبي هذا لتصلي فيه، فيدعو له رسول الله، وينصرف الرجلُ إلى زوجته، فإذا بها تقول له: تأخرتَ بقدْرِ كذا تسبيحة، فقال: لقد استوقفني رسولُ الله وحدث كذا وكذا، فقالت له: شكوتَ ربَّك لمحمد.

ثم يقول تعالى: ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ.. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] إذن: ما الذي يشغلك عن حَضْرة ربك، الرزق؟ ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا.. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] فالذي لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه. فالغنيّ شَرْطٌ في إيمانه الفقيرُ، وليس شرطاً في إيمان الفقير الغني.

وكأن الحقّ سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه في مال الغنيّ، لا ينتظره حتى يسأل، ويُريق ماءَ وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه في مجتمع الإيمان.

وقوله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ.. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] أي: لا نسألك رزقاً ثم نتركك، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك، فاطمئن إلى هذه المسألة.

﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] لأنك إذا تأزمتْ معك أمورُ الحياة تلجأ إلى الله، كما كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ قام إلى الصلاة، وتأزُّم الأمور يأتي حينما نفقد نحن الأسباب المُعطاة من الله، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحِيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المُسبِّب سبحانه، كما يقول في آية أخرى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق]

سُورة المُلْك

﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

الإسلام دين الفطرة، ولم يأت للفلاسفة فقط، إنّه جاء للعقل الفطري، وراعى الشاة في الإسلام كالفيلسوف، ومنْ يكنس الشارع أو يمسح الأحذية مُساوٍ لمَنْ درس الفلسفة أو الحقوق؛ لأن الإيمانَ لم يأت لطائفة خاصة، ولكن المنهجَ قد جاء للجميعَ، ولا بدَّ أنْ تكونَ أدلته واضحةً للجميع.

فعندما يُقال لنا: إن الله يعلم كلَّ شيء فيك، لا يدخل معك في متاهة، هو سبحانه يقول لك: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

فالذي صنع الكرسي –ولله المثل الأعلى– ألا يعرف أن الكرسي مصنوعٌ من الخشب، ونوع الخشب "زان" أو "أرو" أو "ماهجونى"، وأن المسمار الذي يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب وإما من معدن آخر، وكذلك يعلم صانعُ الكرسي أيّ صنف من الغراء استُعمل في لَصْق أجزاء الكرسي، وكذلك مواد الدهان التي تم دَهن الكرسي بها.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى جدال، ولذلك نجد النَّجار الذي يرغب أن تكون صنعته مكشوفةً واضحة يقول للمشتري: سوف أصنع الكرسي من خشب الزان وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل فعله.

ويبدأ صناعة الكرسي مرحلة مرحلة تحت إشراف الزَّبون، وكذلك يعرف البدوي كيف يتكون الرَّحْل، وهو ما يُوضع على ظهر البعير للركوب، العربي يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشَّعْر.

وقد جاء سبحانه بما يدحض أيَّ جدل، وبدون الدخول في أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال. جاء الحق بهذا القول الفصل: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الملك]

هو يعلم وهذا أمر سهلٌ عليه، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة في متاهة فلسفية، فالإسلام دين الفطرة.

لقد أنزل اللهُ القرآنَ بعلمه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وهو الذي خلق كل الخَلق ويعلم -وهو العليم- ما يصلح للبشر من قوانين.

وفي أعرافنا البشرية نجد أن الذي يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدي مهمتها كما ينبغي، كذلك الله الذي خلق الإنسان، هو سبحانه الذي وضع له قانون صيانته بـ "افعل" و "لا تفعل".

ولذلك يقول الحق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الملك]

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد، فما بالنا بخالق الإنسان؟ إنّ العبث الذي يوجد في العالم سببه أن الناسَ قد استقبلوا خلق الله لهم، ولم يدّع أحدٌ أنه خلق نفسه أو خلق غيره، ومع ذلك يحاولون أنْ يُقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله.

ونقول: دَعُوا خالق الإنسان يضع لكم قانونَ صيانة الإنسان بـ "افعل" ولا "تفعل" وإنْ أردتم أنْ تُشرِّعوا فلتُشرِّعوا في ضوء منهج الله، وإنْ حدث أيٌّ عطب في الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن.

المتاعب إنما تنبع من أن الإنسانَ يتناسى في بعض الأحيان أنه من صنعة الله، ويحاول أنْ يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله، والذي يُزيل متاعب الإنسانية هو أنْ تعود إلى قانون صيانتها الذي وضعه الخالق تبارك وتعالى.

والحق سبحانه وصف نفسه بأنه (اللطيف) ومظاهر اللطف لا حَصر لها، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه، فهو اللطيف الذي إذا ناديتَه لبّاك، وإذا قصدته آواك، وإذا أحببته أدناك، وإذا أطعتَه كافاك، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك، وإذا أعرضتَ عنه دعاك.

فهو القائل: ((يا بنَ آدم.. إنْ ذكرتني في نفسك ذكرتُكَ في نفسي، وإنْ ذكرتني في ملأ ذكرتُكَ في ملأ خير منهم، وإنْ دنوتَ منّي شبراً دنوتُ منك ذراعاً، وإنْ دنوتَ منّي ذراعاً دنوتُ منك باعاً، وإنْ أتيتني تمشي أتيتُكَ أهرول)).

وكلها مظاهر لطف. وهو المنادى: "توبوا إلى الله" والرسول ﷺ هو القائل: ((لله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة)) وإذا قربت من الله هداك.

ويأتي عالمٌ آخر ممَّنْ انفعلوا بصفات اللطف، فيقول: الذي يُجازيك إنْ وفيتَ، ويعفو عنك إنْ قصَّرتَ، وعالمٌ آخر يضيف إلى معاني اللطف فيقول: منْ افتخر به وأعزه، ومَنْ افتقر إليه أغناه.

وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف، فيقول: مَنْ عطاؤه خير، ومنعه ذخيرة. أي: أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له في الآخرة، كُلُّ هذه مظاهر للطف.

وهذا مناسب لقوله الحق: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أنْ ندركه، وحين تحلل أنت أيَّ أمر قد لا تصل إلى فَهْم النعمة، وإنْ وصلت فأنت لا تقدر أنْ تؤدي الحمدَ على تلك النعمة.

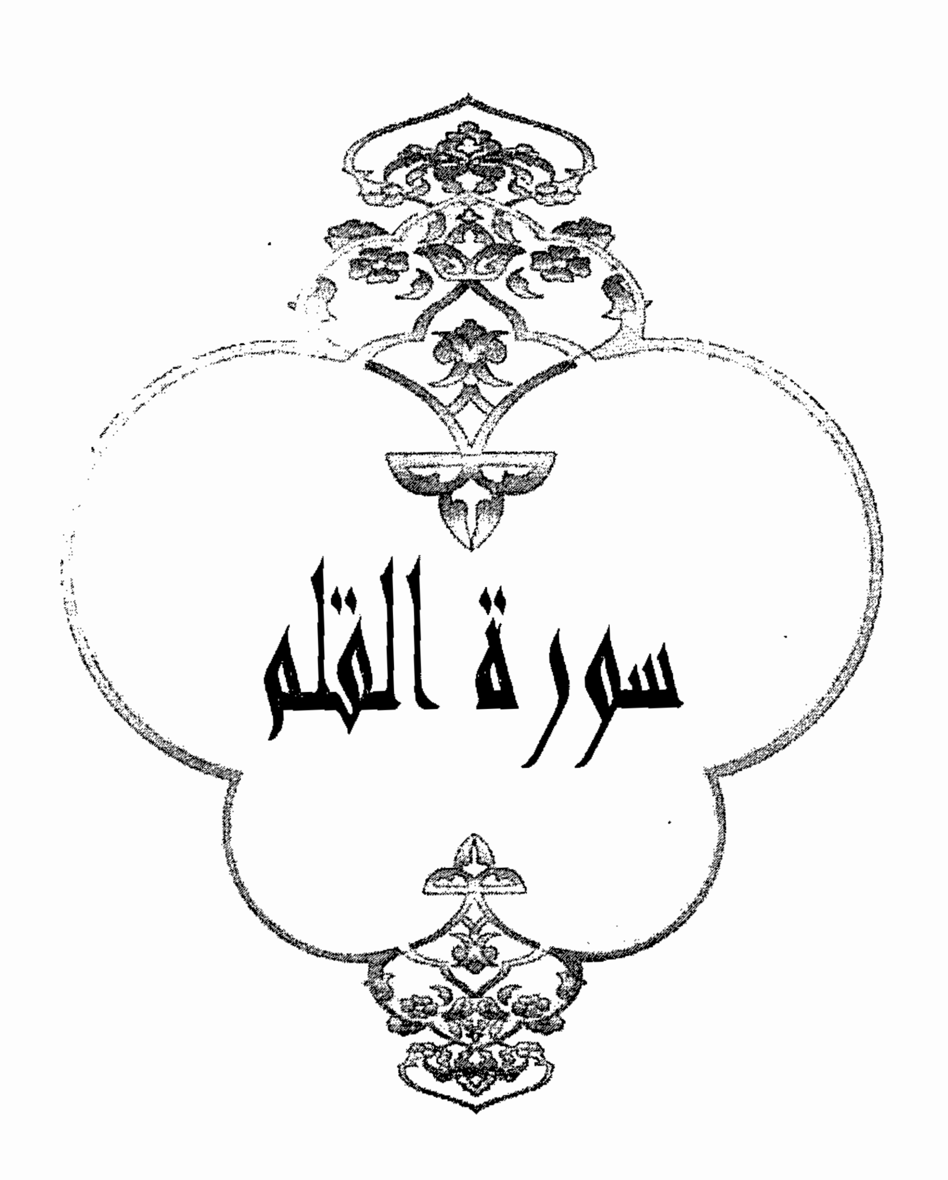
وقول الحق: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] مناسبٌ لكلمة: خبير، ونحن في حياتنا نسمع كلمة (خبير) فعندما نقابل أيَّ مشكلة من المشكلات نجد منْ يقول: نريد أنْ نسمع رأي الخبير فيها.

وفي القضاء نجد القاضي يستدعي خبيراً ليكتب تقريراً في أمر يحتاج إلى مَنْ هو متخصصٌ فيه وعليمٌ به، إذن: فالخبيرُ في مجالٍ ما هو الذي يعرف تفاصيل الأمر، فما بالنا بالخبير الأعلى الذي لا يستعصي عليه شيءٌ في مُلْكه، وهو الذي يدرك الأبصار، فقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] يناسبها (خبير).

ولذلك نجد الحق يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيفٌ خبيرٌ، لطيفٌ يعلم ما يدخل ويتغلغل في الأشياء، وخبيرٌ بكلِّ شيء، وقديرٌ على كلِّ شيء.

ولنفهم جميعاً أَنَّ الحقَّ سبحانه فوق عباده، إنه غالب بقدرتـــه، يـــدير الكون بحكمة وإحاطة علم، وهو خبيرٌ بكلٍّ ما خَفيَ عليهم وبكل ما ظهر·

وفاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لا تخفـــى عليـــه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أُخفيتُم شيئاً عن عيون الخلق قد يَخْفى على الله أبداً، فلن يخفى شيءٌ عن عيون الخالق؛ لأنكم إنْ عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء·


سورة القلم

سورة القلم

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

ومحمد ﷺ على خلق عظيم، وهل يُقال للمجنون: إنه على خلق عظيم؟ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون: أيضربه؟ أيشتمه؟ أيقطع له ملابسه؟

أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم، وخُلق رسول الله ﷺ مضبوطٌ بالقيم حتى صار مَلكةً وليس أمرًا افتعاليًّا. وحين يقول الناس عن إنسان: إن خُلقه الكرم. أي: تأصلتْ فيه صفةُ الكرم تأصُّلاً بحيث أصبحتْ تصدر عنه أفعالُ البذل بيُسْر وسهولة، وفي أعمال المعاني نُسمِّيها خُلقاً، وفي أعمال المادة نُسمِّيها آلية.

قولهم: مجنون. فالمجنون لا يدري ما يفعل، ولا يعقل تصرفاته، ولا يُسأل عنها، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشيء فنقول عنه مثلاً: كذاب أو قبيح؛ لأن آلةَ الاختيار عنده مُعطّلة، وليس لديه انسجامٌ في التصرفات، فيمكن أنْ يضحكَ في وجهك، ثم يضربك في نفس الوقت، يمكن أنْ يُعطيك شيئاً ثم يتفل في وجهك.

والمجنون ليس له خُلق، والحق يخاطب رسولهﷺ: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

والخُلق هو الملَكة المستقرة للخير، فكيف يكون محمدٌ مجنوناً، وهو على خُلق عظيم؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين.

وإنْ قُلْتم مجنون، فالجنون فَقْد العقل، بحيث لا يستطيع الإنسانْ أنْ يختارَ

بين البدائل، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك؟ وكيف يكون المجنون على خُلق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادقُ الأمين، فعنده انضباطٌ في الملَكات وفي التصرفات، فكيف تتهمونه بالجنون؟

والمجنون لا يكون أبداً على خُلق عظيم ؛ لأنه محكومٌ بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان، ولا ينشأ عن ذلك خُلق كريم.

أما الإنسانُ السَّويُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة، فلو اعتدى عليه إنسانٌ فقد يردُّ عليه بمثل هذا الاعتداء، وقد يفكر في المثلية، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح، واحدٌ يكظم غيظه، وآخرُ يزيل كلَّ أثر للغيظ، ويبغي الأجرَ على ذلك من الله.

المجنون هو منْ فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكري، يصبح غيرَ أهْل للتكليف؛ لأن التكليفَ فيه اختيارُ أنْ تفعلَ كذا ولا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرةَ على هذا الترجيح.

والحق سبحانه لم يكلف الإنسانَ إلا حين يبلغ ويعقل؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتيةٌ مستقلةٌ عن أهله وعن أبيه وأمه؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والدهُ أو والدتُه الملابسَ والطعام، وبعد أنْ يكبر نجد

الطفلَ قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أنْ يختارَ لنفسه ما يريده فقد صارتْ له ذاتية.

والذاتية كما نعلم تُوجد في النبات وفي الحيوان والإنسان، وذلك بمجرد أنْ يصيرَ الفردُ منها قادراً على إنجاب مثله، سواءٌ كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إنْ كان الإنسانُ قد صارتْ له ذاتيةٌ في الإنجاب والنسل، وليست له ذاتيةٌ ناجحة عاقلة في التفكير؛ فهنا يسقط عنه التكليف لأنه مُكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يَبْلغ، والمجنون والمُكره بمنْ هو أقوى منه، وهذه عدالة الجزاء من الحق، وهكذا نجد أن التكليفَ لا يلزم إلا منْ بلغ جسمه ونضج عقله، وبهذا يحرس رَبُّنا الكون بقَيُّوميَّتِه.

وإذا كان المجنونُ هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو قد عاش بينهم، ولم يكُنْ قَط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده كلَّ غَالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به، وخُلقه الفاضل ذاتيٌّ مستمر ودائم.

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له، وبغَوْغائيَّة، وكلٌّ واحد يُلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيبٌ؛ لذلك قال الحقَ تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ]

أي: أنْ يجلسَ كلٌّ اثنين ويتدارسا: هل محمدٌ عاقلٌ أم مجنون؟ وسيجد كلٌّ منهما من واقع تجربته أنَّ محمدًا هو أكثر الناس أمانة، وكان الجميع يسمونه الأمين، حتى قبل أنْ يتصلَ به الوحي، وليس من المعقول أنْ يضرّه الوحيُ، أو أنْ يفقد بالوحي توازنه الخُلقي.

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم]

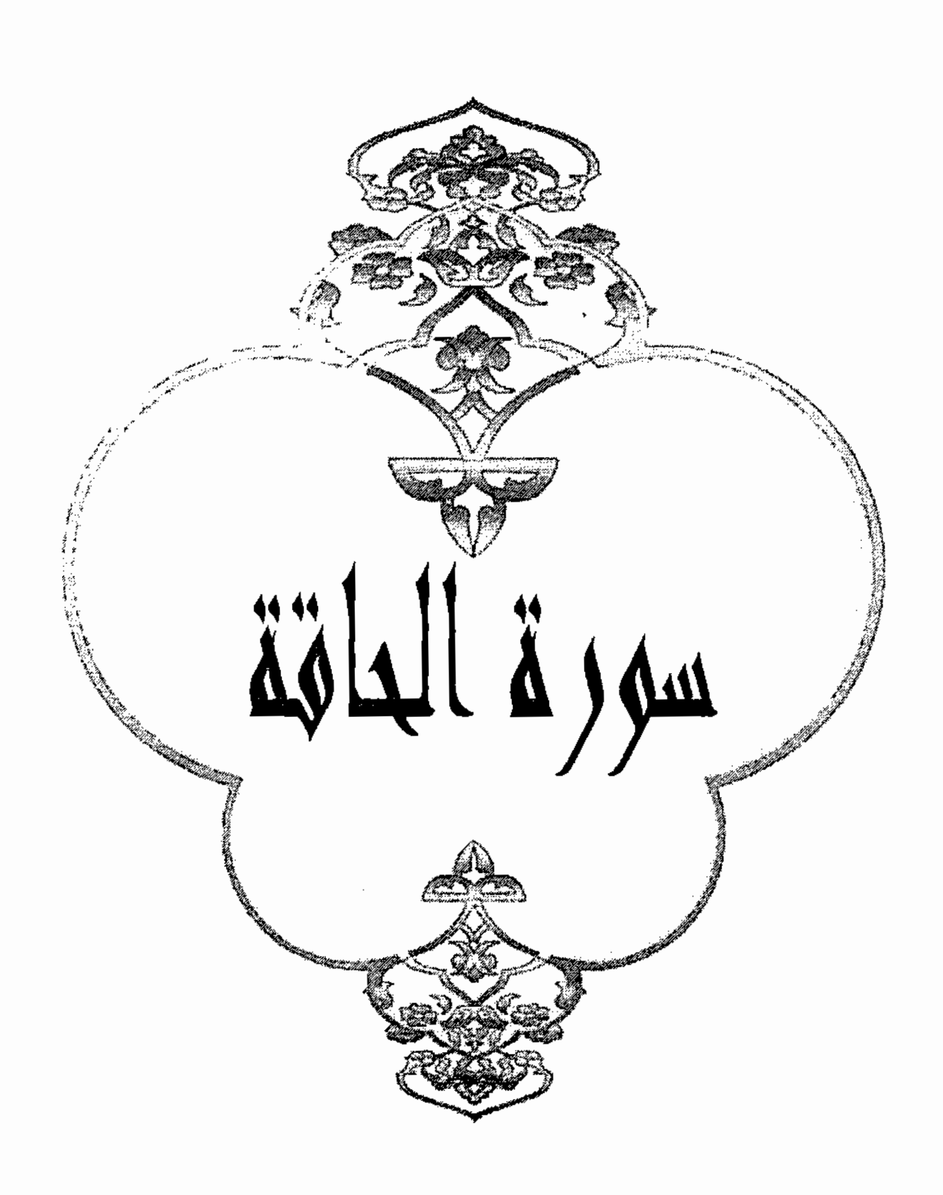
كان خُلُق رسول الله ﷺ خُلُقاً عظيماً؛ لأن الخُلق هو الصفات التي تُؤهل الإنسانَ لأنْ يعيشَ في مجتمع سليم وهو مُسالم، وما دام خُلُقه سليماً، فمعيار الحكم عنده سليم.

وبعد ذلك قالوا عنه: إنه ساحر، ونقول لهؤلاء: لماذا إذن لم يسحر كبارَ رجال قريش ليؤمنوا برسالته؟ إن كلَّ ذلك جدلٌ خائب، والمسألة ليس فيها سحرٌ على الإطلاق.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾

[الأعراف]

الجنَّة التي تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله ﷺ هي منتهى العقل ومنتهى الخلق، فمحمد ﷺ نذير واضح، جاءكم أولاً بالبشارة لكنكم في غيكم لا تستحقون البشارة، بل تستحقون الإنذار.


سورة الحاقة

سورة الحاقة

ما هو بقول شاعر

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة]

أي: أن جبريل لم يأْتِ بهذا القرآن من عنده هو، بل من عند الله بالحق، فمُحمد ﷺ لم يَأْتِ بالقرآن من عنده، وكذلك جبريل. فالقرآن من عند الله، ليس افتراءً على الله، لا من محمد، ولا من جبريل عليهما السلام.

والكريم لا يكتم شيئاً مِمّا أُوحى إليه، فهذه صفة جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه، أوصله للمصطفى الأمين من البشر.

إذن: فالقرآن الذي بين أيدينا هو هو الذي نزل من اللوح المحفوظ، وهو الحق الثابت الذي لا شَكّ فيه، والذي لم يتغيّر منه حرفٌ واحدٌ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعةُ.

وقد قالوا: إن الرسول ﷺ شاعر. ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله، ولأنه ليس من قوم هم أهلُ فصاحة، وأهلُ بلاغة، وأهلُ بيان، إنهم يعرفون الشعر والنثر، والخطابة والكتابة.

فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القولُ مقبولاً، ولذلك نجد منهم مَنْ تصفو نفسه، يقول: والله ما هو بقول كاهن، ولا بقول شاعر.

فهل أُثِرَ عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تَبارَى في عكاظَ أو المربد أو ذي المجاز أو المَجَنَّة، وتلك هي أسواقُ البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً.

إذن: أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء؟ ألم يكُنْ امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً؟ لقد كان وكان له نظير يعارضه. وكذلك كان عمرو بن كلثوم، والحارث بن حِلِّزة اليشْكُري، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل: جرير والفرزدق.

إذن: فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء.

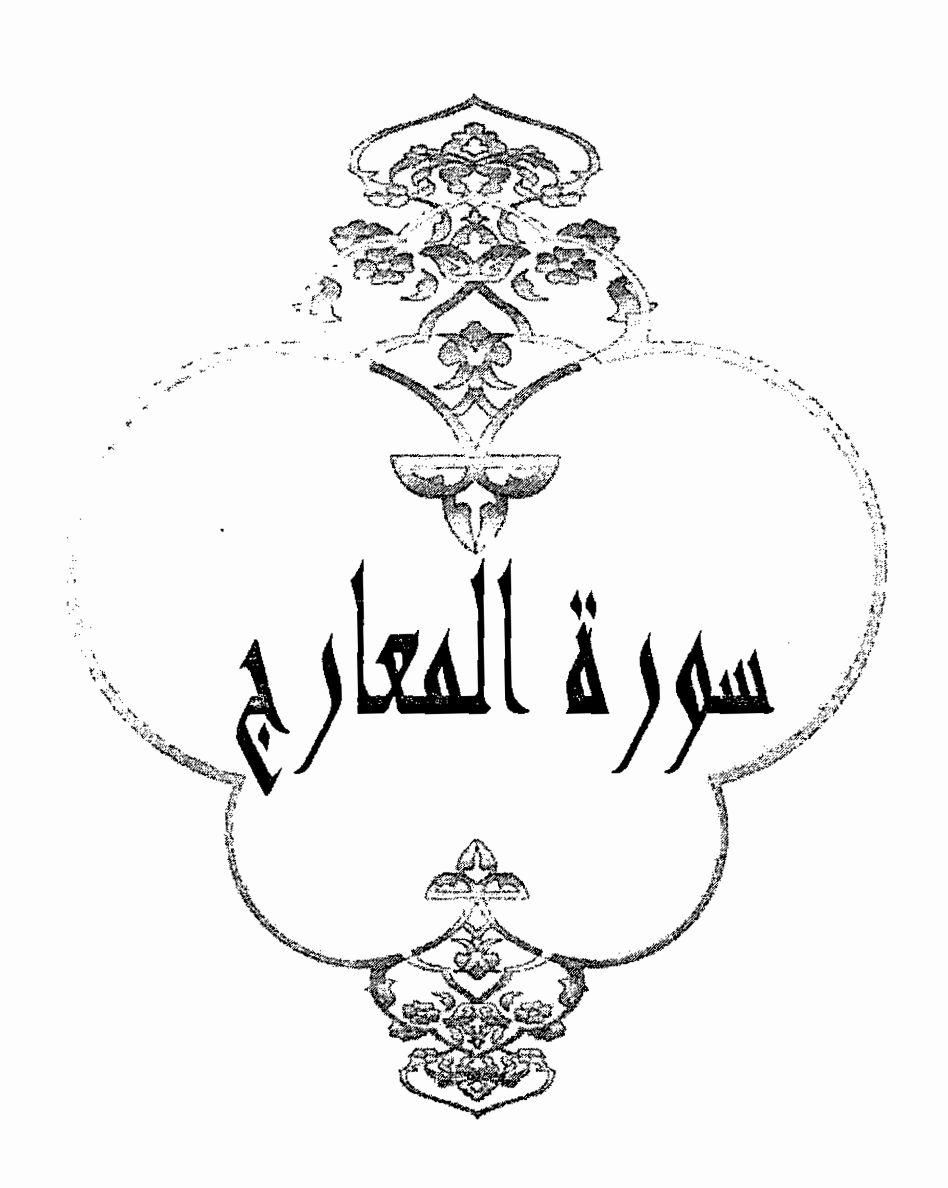
والشعراء: جمع شاعر، وهو مَنْ يقول الشعر، وهو الكلام الموزون المُقفَّى، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر، وردَّ عليهم القرآنُ الكريم في عدة مواضع، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان، وأهل الخبرة في الكلام الموزون المُقفَّى، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً في ذي المجاز وذي المجنَّة وعكاظ، ويعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم.

إذن: هم يعرفــون الفَــرْق، لكــن يقصــدون بقــولهم كمــا حكــاه القــــرآن: ﴿ أَم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطــــور]

يقصدون بالشعر الكلام العَــذْب الــذي يســتميل الــنفس، ويُــؤثِّر فــي الوجدان، ولو كان نثراً.

وهذه ينادى بها الآن أصحابُ الشعر الحر ؛ لأنهم يقولون شعراً، لكنه غير موزون وغير مُقفًّى.


سورة المعارج

سورة المعارج

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾ [المعارج]

إن الله سبحانه قد حدد في أموال منْ يدخل في مقام الإحسان حقاً للسائل والمحروم، ولم يُحدد اللهُ قيمةَ هذا الحق أو لونه، هل هو معلومٌ أو غيرُ معلوم، لكن حين تكلَّم اللهُ عن المؤمنين قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾ [المعارج]

وهكذا نجد في أموال صاحب مقام الإحسان حقاً للسائل والمحروم، لكن في أموال صاحب الإيمان حَقٌ معلوم وهو الزكاة، ومقامُ الإحسان يعلو مقامَ الإيمان ؛ لأن الحقَّ في مال المؤمن معلومٌ، أما في مقام الإحسان فإن في مالهم حقاً للإحسان إلى الفقير وإنْ لم يكُنْ معلوماً، أي: لم يحدد.

وقد رأينا بعضَ الفقهاء قد اعتبر الزكاةَ -ما دامت حقاً للفقير عند الغني- فإن منع الغني ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغني، لأنه أخذ حقَّ الفقير. ونصاب السرقة ربع دينار ذهباً، فيبني الإسلامُ قضاياه الاجتماعية إما على النفقة غير المفروضة وإما على النفقة المفروضة.

فإذا ما شحّتْ نفوسُ الناس، ولم تستطع أنْ تتبرع بالقدر الزائد على المفروض، وتمكَّنَ حبُّ مالها في نفسها تمكُّناً قوياً بحيث لا تتنازل عنه.

كأن الله سبحانه يقول لكل منهم: أنت لم تتنازل عن مالك، وأنا حرّمتُ الربا، فكيف نلتقي لنضع للمجتمع أساساً سليماً؟ سنحتفظ لك بمالك ونمنع عنك فائدة الربا، وهكذا نلتقي في منتصف الطريق، لا أخذنا مالك ولا أخذتَ من غيرك الزائد على هذا المال.

وكلمة (حق) وردتْ في القرآن على معنيين :

الأول: في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] والحق المعلوم هو الزكاة.

أما الحق الآخر فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف، وهو التطوع والإحسان، حيث تتطوّع لله بجنس ما فرضه عليك، كما قال تعالى :
﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] ولم يقل: معلوم. لأنه إحسانٌ وزيادةٌ عمَّا فرضه اللهُ علينا.

ويجب على من يُؤْتِى هذا الحق أنْ يكون سعيداً به، وأنْ يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيارٌ تتحوّل وتتقلَّب بأهلها، فالصحيح قد يصير سقيماً، والغنيُّ قد يصير فقيراً وهكذا، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك في المستقبل، وضمانٌ لأولادك من بعدك، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غداً، إنْ دارتْ عليك الدائرة.

فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمينٌ لك في المستقبل يجعلك تُجابه الحياةَ بقوة وتُجابه الحياةَ بغير خوَر وبغير ضعف،

وتعلم أن حقك محفوظٌ في المجتمع، وكذلك إنْ تركتَ أولادك في عَوَزٍ وحاجة فالمجتمع مُتكفِّل بهم.

وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

ولذلك، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم، ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً.

وقد جعل الله نصيباً من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمنُ أن تكافله الإيماني مُتعد إلى بيئة وجوده، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة.

ونُؤتي المال أيضاً للسائلين أي: الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال، أعط مَنْ يسألك ولو كان على فرس، لأنك لا تعرف لماذا يسأل، إن بعضاً من الناس يبررون الشُّح فيقولون: إن كثيراً من السائلين هم قومٌ محترفون للسؤال، ونقول لهم: ما دام قد سأل انتهتْ المسألة.

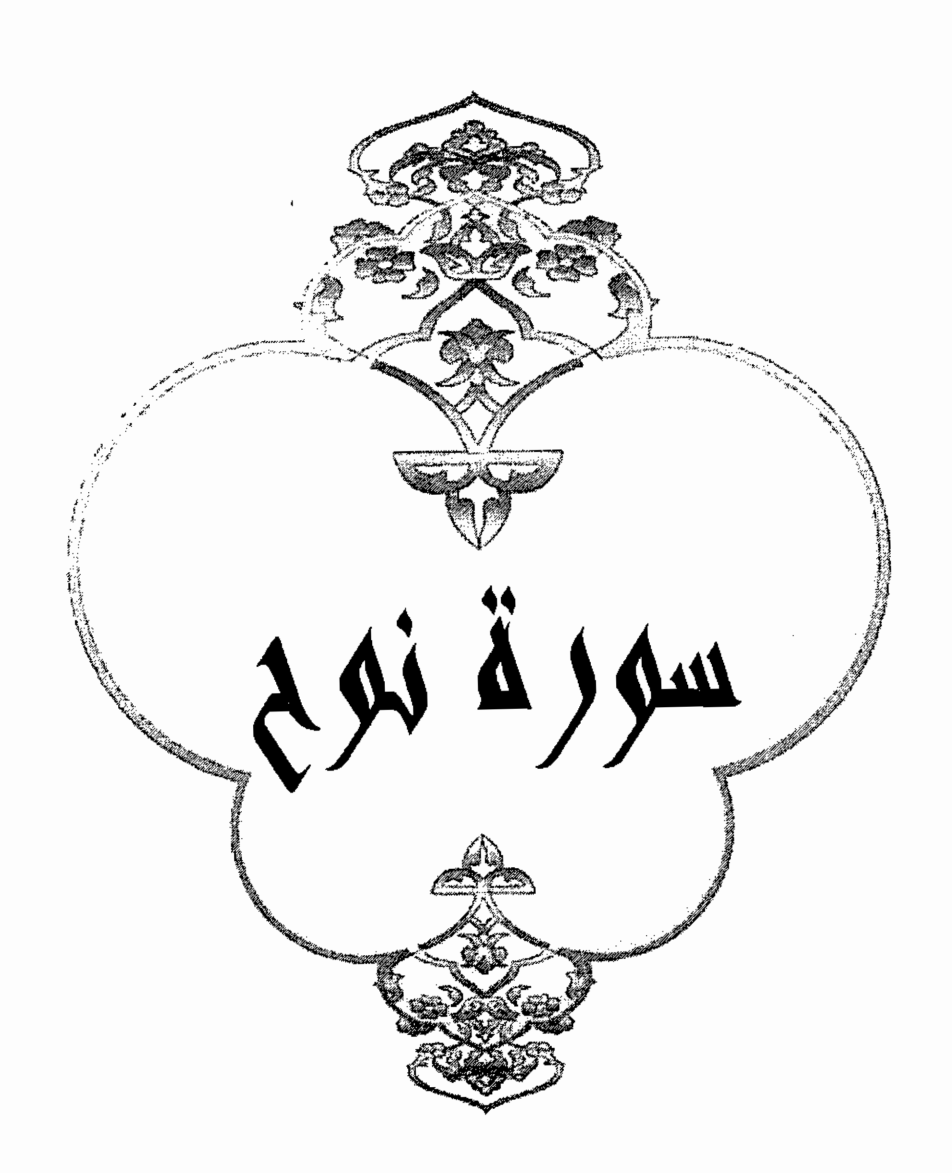
وعُمدتنا في ذلك قوله ﷺ: ((أعطوا السائل وإنْ جاء على ظهر فرس)).

وما دام قد عرَّضَ نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد، قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز، أو يُخفي المالَ بعيداً. وأقول: قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفي أولاده، وقد يُخفي المالَ الذي لا يكفيه، ولن تخسر شيئاً من إعطائه، فلأنْ تُخطيء في العطاءِ خيرٌ من أنْ تصيبَ في المنع.

فالحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يشيع في الناس الرحمة والمودة، وأنْ يشيع في الناس التعاطف. إنه الحق –سبحانه– صاحب كل النعمة أراد أن يشيع في الناس أنْ يعرف كل صاحب نعمة في الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره.

فإنْ رآها المحروم علم أنه مستفيد منها، فإذا كان مستفيداً منها فإنه لن ينظر إليها بحقد، ولا أنْ ينظرَ إليها بحسد، ولا يتمنى أنْ تزول لأن أمرها عائدٌ إليه.

ولكن إذا كان السائد هو أنْ يريد صاحب النعمة في الدنيا أنْ يأخذ بالاستحواذ على كل عائد نعمته، ولا يراعي حقَّ الله في مهمة النعمة، ولا تتعدى هذه النعمة إلى غيره، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أنْ تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد، ويشيع الحقد ومعه الضغينة، ويجد الفسادُ فرصة كاملة للشيوع في المجتمع كله.


سورة نوح

سورة نوح

عاقبة الاستغفار

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾

[نوح]

والاستغفار لا يكون إلا عن ذنوب سبقتْ، وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود ﷺ لقومه. إذن: فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله، أو هي الذنوب التي ارتكبوها بالفطرة.

ثم يقول الحق في الآية بعدها: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ **[نوح]**

ولقائل أنْ يقول: وما صلةُ الاستغفار بهذه المسألة الكونية؟

ونقول: إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه، جماده ونباته وحيوانه، وهو سبحانه قادر، ولا يقدر كائنٌ أنْ يعصيَ له أمراً، وهو القادرُ أنْ يُخرج الأشياء عن طبيعتها، فإذا جاءت غيمةٌ وتحسب أنها مُمطرة، قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر.

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن: فلا تأخذ الأسبابَ على أنها رتابةٌ ؛ إنما ربُّ الأسباب يملكها، فإنْ شاء فعل ما يشاء، وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التي تنتظم بها كل حركة في الحياة، فأنت تُقبل على عمارة الأرض، وتوفّر لنفسك القُوتَ باستنباطه من الأسباب التي طمرها اللهُ سبحانه وتعالى في الأرض.

والقوت من جنس الأرض، لذلك لا بدَّ أنْ نزرعَ الأرض، وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى، فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ، فتأخذ البذورُ حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض، ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء.

والسماء هي كلُّ ما عَلاكَ فأظلَّكَ، أما السماء العليا فهذا موضوع آخر، وكل الأشياء دونها.

وانظروا قول الحق سبحانه:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج]

أي: منْ كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أي شيء ويربطه فيما علاه ويعلّق نفسه فيه، ولسوف يموت، وغيظه لن يرحل عنه.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾ [نوح] والمدرار: هو الذي يُدِرُّ بتتابع لا ضرر فيه، لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ، كما فتح الله سبحانه أبوابَ السماء بماء منهمر.

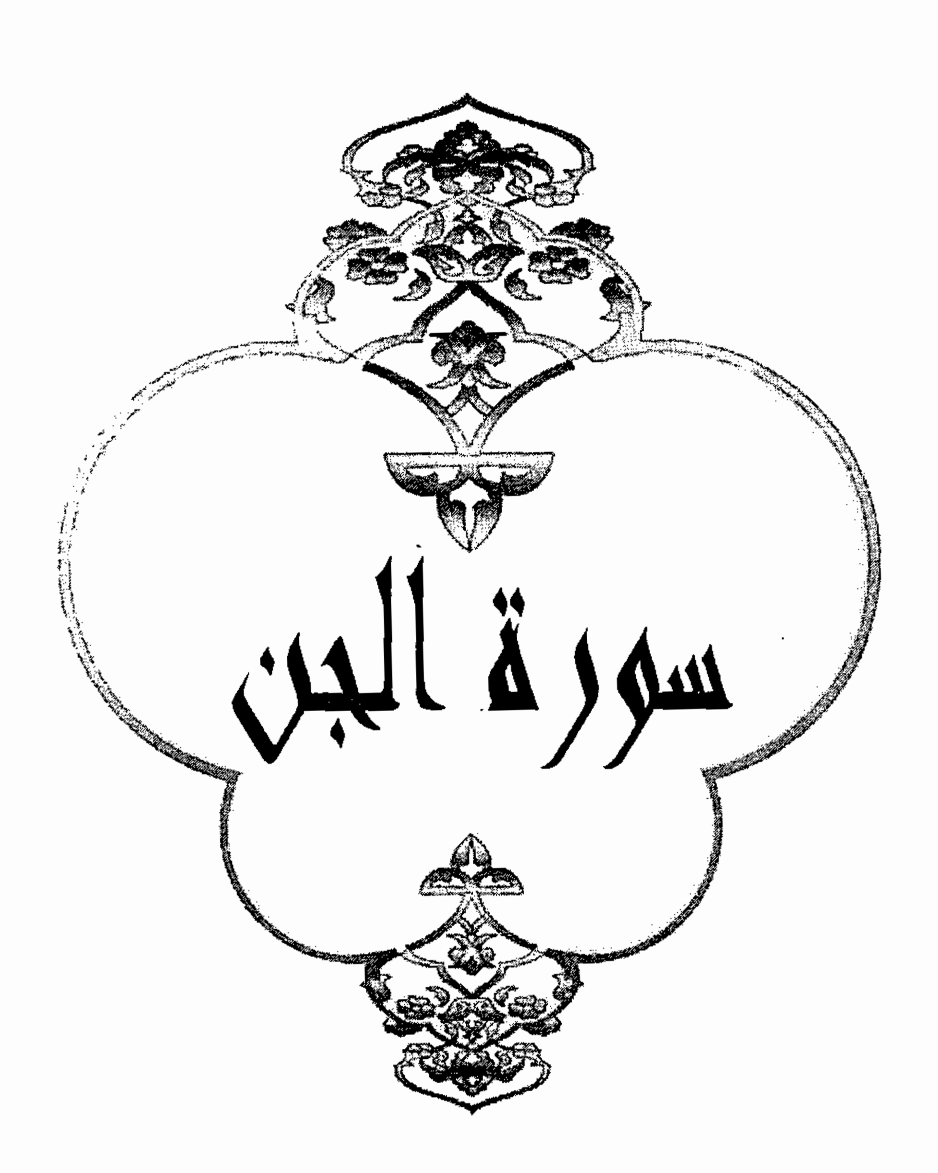
إذن: المدرار هو المطر الذي يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً.

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر: ((اللهم حوالينا ولا علينا)).

ومتى أرسِل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً فالأرض تخضرُّ وتعمر الدنيا ونزداد قوة إلى قوتنا.

فالاستغفار ليس أنْ تُردف الذنب بقولك: أستغفر الله. لا.. إن على الإنسان أنْ يردف الذنبَ بقوله: أستغفر الله وأنْ يُصرَّ على ألا يفعلَ الذنبَ أبداً.

وليس معنى هذا ألا يقع الذنبُ منك مرة أخرى، إن الذنبَ قد يقع منك، ولكن ساعةَ أنْ تستغفر تُصرّ على عدم العودة، إن الذنبَ قد يقع، ولكن بشرط ألا يكون بنيّة مُسبقة، وتقول لنفسك: سأرتكب الذنب، وأستغفر لنفسي بعد ذلك. إنك بهذا تكون كالمستهزيء بربّك، فضلاً على أنك قد تصنع الذنب ولا يُمهلك الله لتستغفر.


سورة الجن

سورة الجن

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن]

الجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون.. واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن]

وقوله سبحانه عن الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ [الجن]

إذن: الجن فيهم المؤمن والكافر، والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي، والشياطين هم مَردةُ الجنِ المتمردون على منهج الله، وكل متمرد على منهج الله نُسمِّيه شيطاناً، سواءٌ كان من الجن أو من الإنس. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا.. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين هم المتمردون على منهج الله.

والشيطان عندما يُذكر في القرآن يُراد به مرةً عاصي الجن، لأن طائعَ الجن مثل طائع البشر تماماً، ومرة يريد به شياطين الإنس. إذن: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين.

و(الشيطان) جنسٌ من خَلْق الله ؛ لأن الله قال لنا: إنه خلق الإنس والجن، والجنُ منهم شياطين، وجنٌ مطلق، والشيطان هو عاصي الجن. ونحن لم نَرَ الشيطان، ولكننا علمنا به بوساطة إعلام الحق الذي آمنا به،

فقال: أنا لي خَلْق مستتر، ولذلك سمَّيته الجن، من الاستتار. ومنه المجنون أي: المستور عقله، والعاصي من هذا الخَلْق اسمه (شيطان).

فمن الجن مسلمون ومنهم القاسطون، لذلك فعندما نقرأ القرآن نجده يقول: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن]

والقاسطون هنا من القسط بالفتح، ومن القُسوط بالضم، أي: من الجَوْر والظلم، والقِسط بالكسر تعني العدل. وتختلف عن (القَسط) بفتح القاف. وهو يعني الجور، قَسَط يقْسِط أي عدل، وقسط يَقْسُط، أي: جار، فالعدل مصدره (القِسط) بالكسر للقاف، والجَوْر مصدره (القَسط) بالفتح للقاف.

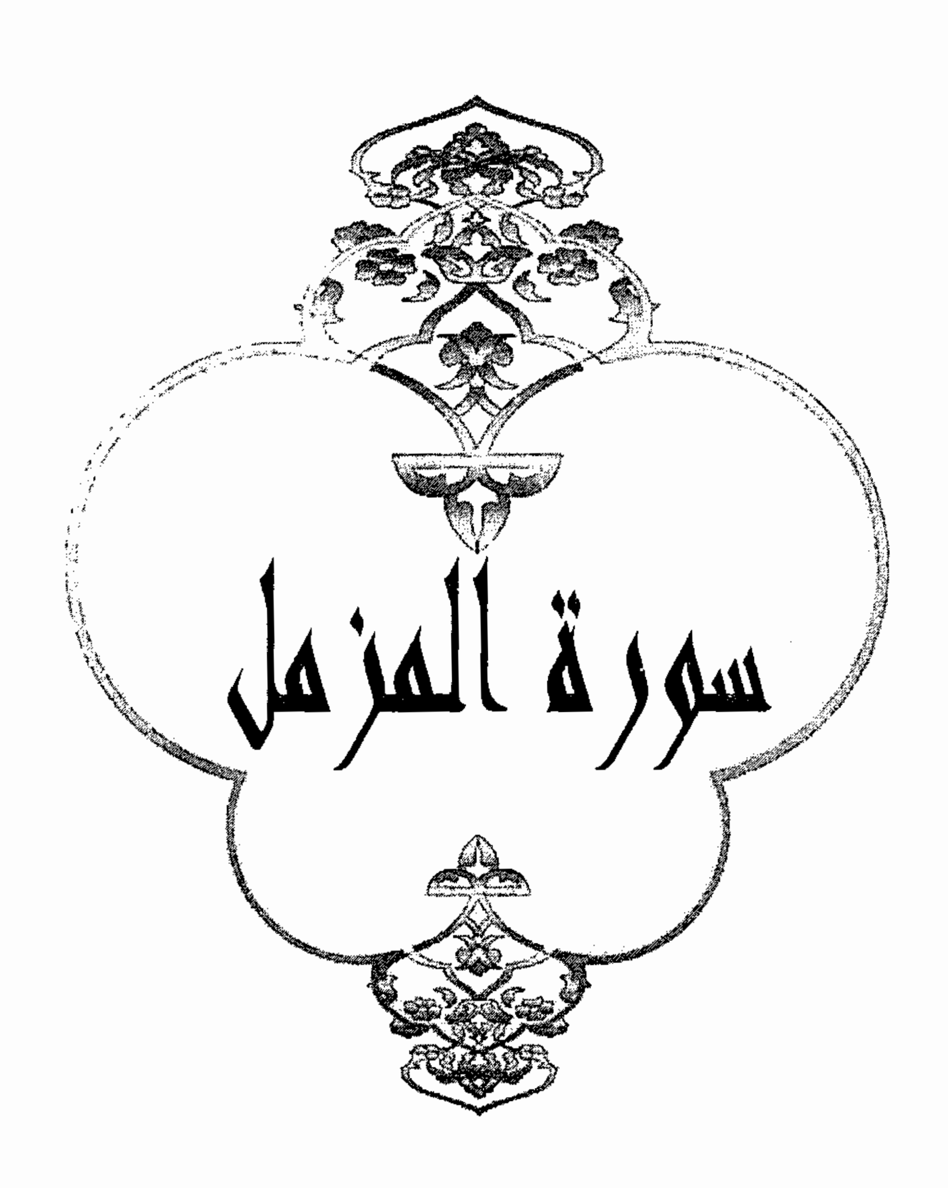
وبعضٌ من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سَفَهاً بغير علم، قالوا: يأتي القرآن بالقسط بمعنى العدل في آيات متعددة، ثم يأتي في موقع آخر ليقول: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن]

و(القاسطون) هي اسم فاعل من قسط، ونقول: مَنْ قال لكم: إن (قسط) تُستخدم فقط في معنى (عدل)، إنها تُستعمل في (عدل) وفي (جار).

وسبحانه يقول عن العادلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة]

القاسط يذهب إلى النار، وهي مأخوذة من: قَسَط يقسُط. والمُقسط يذهب إلى الجنة، ومُقسط مأخوذة من أقسط.

وعندما نرى (أقسط) نراها تبدأ بهمزة الإزالة، أي: كان هناك جَوْر فأزلناه. أما القِسط –بالكسر– فهو العدل من البداية، هو يقسِط. بكسر السين في المضارع، أما يقسُط – بضم السين في المضارع – فتعني: يجور ويظلم. ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل لأكثر من معنى، ليتعلم الإنسانُ لباقةَ الاستقبال، وليفهم الكلمات في ضوء السياق.


سورة المزمل

سورة المزمل

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ ﴾ [المزمل]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه، إلا أنها ليست في قالب من حديد، بل له ﷺ مساحة من الحرية في هذه العبادة، المهم أن يقوم لله تعالى جزءاً من الليل، لكن ما عِلَّة هذه الزيادة في حَقِّ رسول الله؟

العلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل]

وكأن التهجُّد ليلاً، والوقوف بين يدي الله في هذا الوقت سيعطي رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية المُلقاة على عاتقه، ألا وهي مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس.

وفي الحديث الشريف: ((أن رسول الله ﷺ كان كلما حَزَبَه أمرٌ قام إلى الصلاة))، ومعنى حَزَبَه أَمْر: أي: ضاقتْ أسبابُه عنه، ولم يَعُد له فيه منفذ، فإنْ ضاقت عليه الأسبابُ فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويُهْرع إلى نجدته.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝ ﴾ [المزمل]

لأنك في الوقت الذي ينام فيه الناسُ ويخلدون إلى الراحة، وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة، تقوم بين يدي ربك مُناجياً مُتضرِّعاً، فتتنزَّل عليك من الرحمات والفيوضات، فَمَنْ قام من الناس في هذا الوقت واقتدى بك فَلَهُ نصيبٌ من هذه الرحمات، وحَظٌّ من هذه الفيوضات، ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له.

إذنْ: في قيام الليل قوةٌ إيمانية وطاقةٌ روحية، ولمَّا كانت مهمةُ الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظَّه من قيام الليل أزيدَ من حظهم. فأعباءُ الرسول ﷺ كثيرة، والعِبْءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم، حتى يستعينَ بلقاء ربه على قضاء مصالحه.

ومن العجيب أنْ ينصرفَ المسلمون عن هذه السُّنة، ويتغافلون عنها. فإذا حزبهم أمرٌ لا يُهْرَعون إلى الصلاة، بل يتعللون، يقول أحدهم: أنا مشغول. وهل شُغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة؟

ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبوابُ، وتقضي في ساعة ما لا تقضيه في عدة أيام.

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها، فإنْ صلُّوا صلَّوا قضاءً، فإنْ سألتَهم قالوا: المشاغل كثيرة والوقت لا يكفي، فهل إذا أراد أحدهم الذهابَ لقضاء حاجته، هل سيجد وقتاً لهذا؟ إنه لا

شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر، حتَّى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً؟!

وقوله تعالى: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ.. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء]

النافلة هي الزيادة عمًّا فرض على الجميع (لك) أي: خاصة بك دون غيرك، وهذا هو مقامُ الإحسان الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

والمحسن هو الذي دخل مقام الإحسان، بأنْ يزيدَ على ما فرضه الله عليه، ومن جنس ما فرض؛ لذلك جاءتْ حيثية الإحسان: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك، فلكَ أنْ تُصلي العشاء وتنام حتى صلاة الفجر، لكن إنْ أردت أنْ تتأسَّى برسول الله ﷺ وتتشبّه به فادخلْ في مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك.

ثم يقول تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء]

تحدثتْ الآية في أولها عن التكليف، وهذا هو الجزاء، و ﴿ عَسَىٰٓ ﴾ تدل على رجاء حدوث الفعل، وفَرْق بين التمني والرجاء، التمني: أنْ

تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غيرُ ممكن الحدوث أو مستحيل، ومن ذلك قول الشاعر:

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لي فَأنْظِمُها

فالشاعر يتمنى لو أصبحتْ الكواكبُ بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمَنْ يمدحه، وهذا أمرٌ مستحيلُ الحدوث.

وقوله:

أَلاَ لَيْتَ الشَّباب يعُودُ يَوْماً فَأُخبرُه بِمَا فَعَلَ المَشيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث، ويقع تحت الطلب أشياءُ متعددة، فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تَمنٍّ، وإنْ طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ، وإنْ طلب صورةَ الشيء لا حقيقته فهو استفهام، كما تقول: أين زيد ؟

وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة، فإنْ طلبتَ حقيقة الشيء، فأمامك حالتان: إما أنْ تطلبَ الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر، مثل: قُمْ. فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهي: لا تَقُمْ.

إذن: ﴿ عَسَى ﴾ تدل على الرجاء، وهو يختلف باختلاف المَرجو منه، فإنْ رجوتَ من فلان فقد يعطيك أو يخذلك، فإنْ قُلْتَ: عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأنني أرجو من نفسي، لكن الإنسان بطبعه صاحبُ أغيار، ويمكن أنْ تطرأ عليه ظروفٌ فلا يَفِي بما وعد.

فإنْ قُلْت: عسى الله أنْ يعطيك، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجِزه شيء، ولا يتعاظمه شيء، ولا تتناوله الأغيار. إذن: فالرجاءُ فيه مُحقَّق لاَ شَكَّ فيه.

والمقام المحمود، كلمة محمود: أي الذي يقع عليه الحمد، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ: محمود مِمَّنْ؟ فهو محمودٌ مِمَّنْ يمكن أنْ يتأتَّى منه الحمدُ، محمود من الكل من لَدُنْ آدم، وحتى قيام الساعة.

والمراد بالمقام المحمود: هو مقام الشفاعة، حينما يقف الخَلْقُ في ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشِدّته، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ، ولو إلى النار، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء، فيقول: أنا لها، أنا لها.

لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء: ((وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته)) ولا شَكَّ أنه دعاءٌ لصالحنا نحن.


سورة المدثر

سورة المدثر

جنود الله

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ.. ﴾ [المدثر]

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أنْ ينظروا في الغار، مع أن آثار الأقدام انتهتْ إليه، لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات، ولم تخطر على بالهم.

ثم جاء حدثٌ آخر، حين استطاع سُراقة بن مالك، وهو من الكفار أنْ يلحقَ برسول الله ﷺ وأبي بكر، وهما في طريقهما إلى المدينة، وكلما حاول الاقترابَ منهما ابتلعتْ الأرضُ قوائمَ فَرسه في الرمال.

وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا.. ﴾ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ.. ﴾ [المدثر]

إذن: فالجنود الذين سخَّرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله. وكلُّ شيء في هذا الكون من جنود الله، فهو سبحانه وتعالى الذي سخّر الكافر لخدمة الإيمان، ألم يكُنْ دليلُ رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط، وكان ما زال على الكفر.

فكأن الله سبحانه وتعالى يُسخر له الكافر ليكون دليله في رحلته من مكة إلى المدينة، وهكذا عمل الكافر في خدمة الإيمان، وفي الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش من جُعل لمن يدلُّها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة، بل أدخل اللهُ على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ.

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقي الرعب في قلوب أعدائك، وهذه وحدها كافية، ويُرْوى أنهم في إحدى المعارك الإسلامية تغيرتْ رائحةُ أفواه المسلمين، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال، فأخرجوا السِّواك يُنظِّفون أسنانهم، ويُطيِّبون أفواههم، عندها قال الكفار: إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا، وقذف اللهُ في قلوبهم الرعبَ من حيث لا يدرون.

إن على المؤمن أنْ يعملَ ما في استطاعته، وأنْ يدعَ الباقي لله، ولذلك فهناك قضيةٌ قد يقف فيها العقلُ، ولكن اللهَ يُطمئننا. أي: لا تخافوا ولا تظنوا أن أعدادهم الكبيرة قادرةٌ على أنْ تهزمكم، ولا تسأل: ماذا أفعل يا الله؟

لقد علَّمنا الحقُّ ألا نقولَ ذلك، وعلَّمنا ما يحمينا من هذا الموقف، لذلك قال: ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن: فساعةَ يُلقي اللهُ في قلوب الذين كفروا الرعبَ، فماذا يصنعون مهما كان عددهم أو عُدّتهم؟ أليس في ذلك نهاية للمسألة؟ إن الرعب هو جنديٌّ ضمن جنود الله.


سورة القيامة

سورة القيامة

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة]

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ.. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حِفْظ القرآن؛ لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي، فيحاول إعادته كلمة كلمة. فإذا قال الوحي مثلاً: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ [الجن: 1] فيأخذ الرسول من تكرارها في سِرِّه، ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن.

فنهاه الله عن هذه العجلة ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ.. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] أي: لا تتعجل، ولا تنشغل بالتكرار والترديد، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل، فلا تَخْشَ أنْ يفوتكَ شيءٌ منه طالما أنني تكفَّلْتُ بحِفْظه، لذلك يقول له في موضع آخر: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة، لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى.

والعَجَلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه، كأنْ تقطفَ الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد، أو تتعجّل

قَطْفها وهي صغيرةٌ لا تكفي شخصاً واحداً، ولو تركتها لأوانها لكانتْ كافية لعدّة أشخاص.

والقرآنُ كلامٌ في مستوى عَالٍ من البلاغة، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حِفْظه، لذلك كان حريصاً على الحِفْظ والتثبيت.

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة، فيقول: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾ [القيامة] أي: لمَّا تكتمل الآياتُ فَلكَ أنْ تقرأها كما تحب.

وهذه الظاهرة من معجزات النبي ﷺ، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن، أو السورة كاملة، ثم حيث يُسري عنه الوحي يُعيدها كما أُنزِلتْ عليه، ولكَ أنْ تأتيَ بأكثر الناس قدرة على الحفظ، واقرأ عليه المدة عشر دقائق مثلاً من أيِّ كتاب أو أي كلام، ثم اطلبْ منه إعادةَ ما سمع فلن يستطيع.

أما النبي ﷺ فكان يأمر الكَتبة بكتابة القرآن، ثم يُمليه عليهم كما سمعه، لا يُغير منه حرفاً واحداً، بل ويُملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول: ((ضَعوا هذه في سورة كذا، وهذه في سورة كذا)).

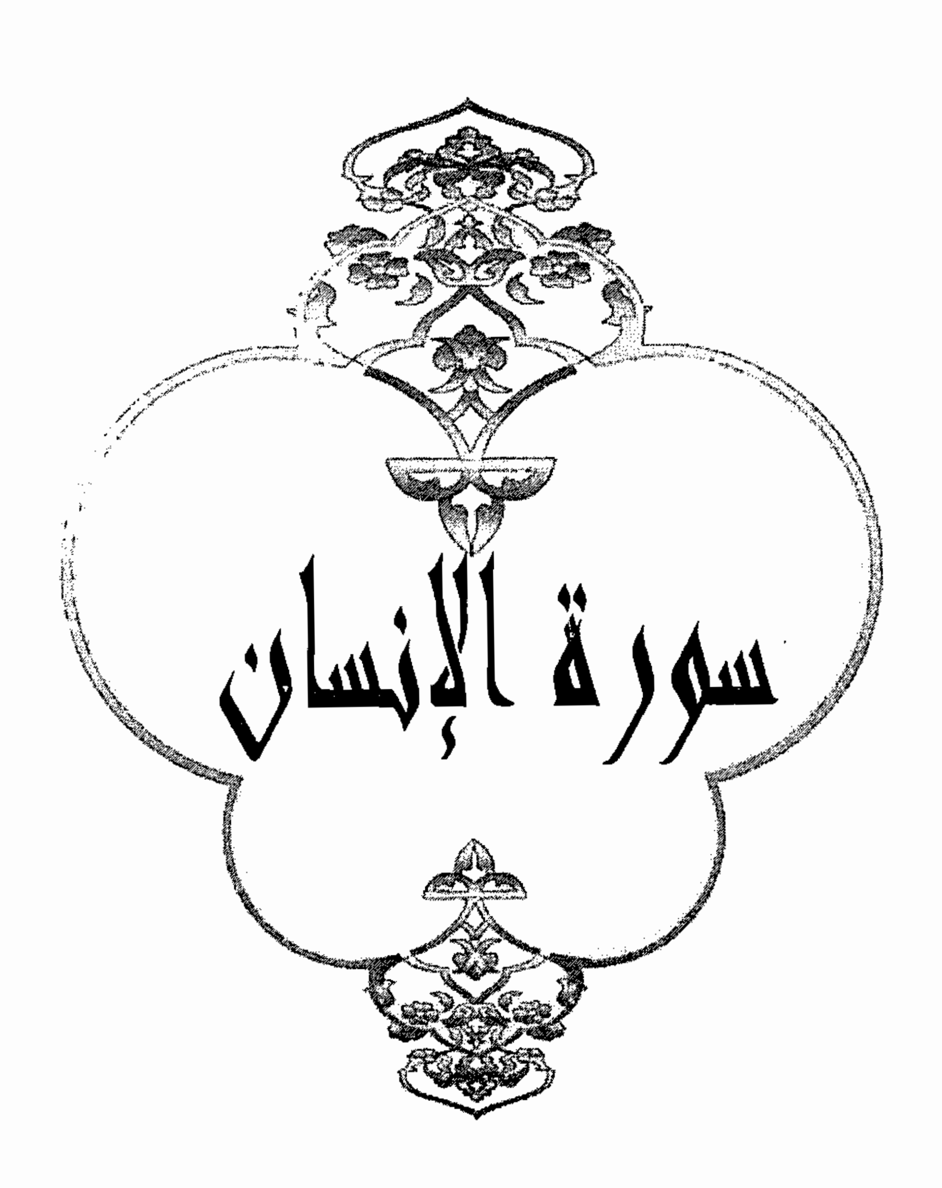
ولو أن السورة نزلتْ كاملة مرة واحدة لكانَ الأمرُ إلى حَدٍّ ما سهلاً، إنما تنزل الآياتُ متفرقة، فإذا ما قرأ ﷺ في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة، هذه نزلت اليوم، وهذه نزلت بالأمس، وهكذا، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية.

وقوله تعالى بعدها: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة]، وخاطب النبي ﷺ في آية أخرى فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.. ﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى، والتبيين من النبي ﷺ.

ومعنى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ.. ﴾ [طه]

أي: انتظر حتى يسري عنك، لكن كيف يعرف الرسول ذلك؟ كيف يعرف أن الحالةَ التي تعتريه عند نزول الوحي قد زالتْ؟

والصحابةُ يَصفون حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه، فيقولون: كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل، وكان جبينه يتفصَّد عَرقاً، ويبلغ منه الجهد مَبلغاً، وإنْ نزل الوحيُ وهو على دابة كانت تنخ برسول الله، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل]


سورة الإنسان

سورة الإنسان

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان]

يقول تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان] أي: لم يكُنْ له وجود.

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميلٌ يستوجب الحمد والثناء، فقد خلق اللهُ لك الكونَ كله، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه، فالشمس تخدمك، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها، وهي تعمل لك دون صيانة منك، ودون أنْ تحتاجَ قطعة غيار، وكذلك الكون كله يسير في خدمتك وقضاء مصالحك، وهذا كله يستحق الحمد.

وبعد أنْ خلقك اللهُ في كون أُعِدّ لخدمتك تركك ترتع فيه، ذرة في ظهر أبيك، ونطفة في بطن أمك إلى أنْ تخرجَ للوجود، فيضمك حضنها، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسِنّ الرشد، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك، وهذه علامة النضج النهائي في تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها.

لذلك حدثنا الحق سبحانه عن خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان]

النطفة التي نجيء منها، وهي الحيوان المَنويّ الذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رَحم المرأة فتنتج العلقة، وسبحانه القائل: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفي خَلْق الملايين، ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوانَ المنويّ الواحد نظراً لِدقَّته المتناهية.

وهذه الدقَّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكبِّرة، ومطمورٌ في هذا الحيوان المنويّ كُل الخصائص التي تتحد مع الخصائص المَطْمورة في بُويْضة المرأة ليتكوَّن الإنسان.

وقد صدق العقاد -يرحمه الله- حين قال: ((إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِيء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسالٌ تتساوى مع تعداد البشر كلهم)).

وقد شاء الحقُّ سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنويّ القوي، لِيُؤكِّد لنا أنْ لا بقاءَ إلا للأصلح، فإنْ كان الحيوان المنويّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولد أنثى، وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً.

وأنت ترى مِثْل ذلك في النبات، فأوَّل حبَّة قمح كانتْ مثلَ آدم كأول إنسان بالطريقة التي نعرفها، وفي تلك الحبَّة الأولى أوجد الحقُّ سبحانه

مضمونَ كلِّ حبوبَ القمح من بعد ذلك، وإلى أنْ تقومَ الساعة، وتلك عظمةُ الحق سبحانه في الخَلْق.

وقد أوضح لنا الحق سبحانه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحلَ خَلْق الإنسان، فهو: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة]

وهو من نطفة، ومن علقة، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة.

والحيوان المنويّ المُسمَّى (نُطْفة) هو الذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث، وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد، وكأن في ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَن، لأن البُويْضة تتلقَّى الحيوانَ المنويّ وتحتضنه، ليكتمل النموُ إلي أنْ يصير كائناً بشرياً: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها، حيث تتعلق بجدار الرَّحمِ كما أثبت العِلْم المعاصر، يقول سبحانه: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً.. ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

والمُضغْة هي الشيء المَمْضُوغ.

ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ.. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل: نحن نفهم أن المُضْغة المُخلَّقة فيها ما يمكن أنْ يصير عيناً أو ذراعاً، ولكن ماذا عن غير المُخلّقة؟

ونقول: إنها رصيدٌ احتياطيّ لصيانة الجسم، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشتري بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية ـ على سبيل المثال ـ تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار، فما بالنا بالحق الذي خلق الإنسان؟

لقد جعل اللهُ تلك المُضْغة غير المُخلَّقة رصيداً لصيانة، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف، وتكون زائدة في الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار.

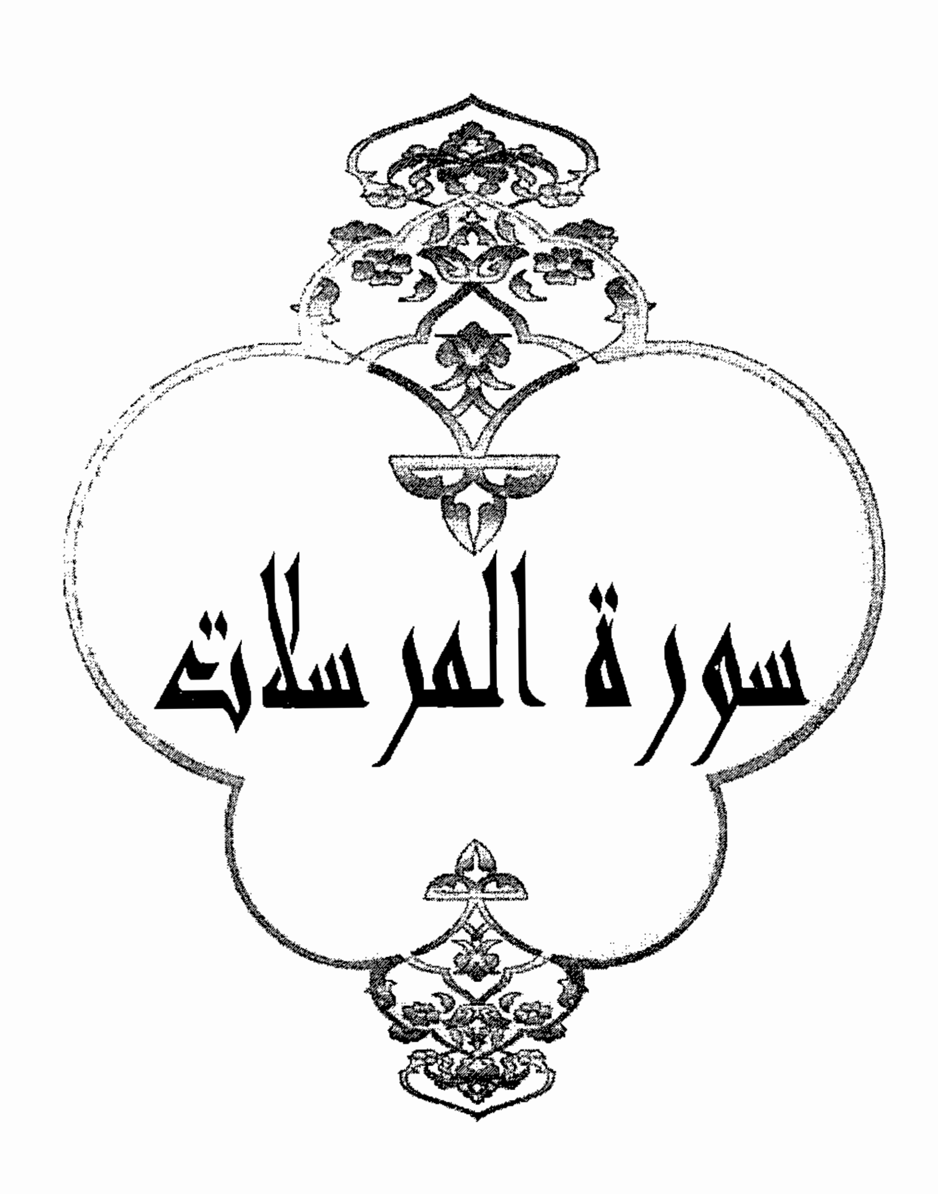
والمثل هو الجروح التي تصيب الإنسان، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة أو علامة، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التي أودعها الحق سبحانه في الجسم نفسه.

والمفاجأة هي أن هذا الإنسانَ المخلوق لله خصيم مبين لله، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [النحل]

ويتمرَّد على خالقه، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً، متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يتجادلون. والخصيم هو الذي يُجادل ويُنكِر الحقائق، فإذا حُدِّث بشيء غيبي، يُحاول أنْ يدحضَ معقوليته.

ويقول سبحانه في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أنْ تكون خَصْماً لمُساويك، ولكن من غير المقبول أنْ تكونَ خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاكَ فَعَدلك، وفي أيِّ صورة ما شاء ركَّبك.


سورة المرسلات

سورة المرسلات

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات]

الله يقول في حق مثل هؤلاء: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات]

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا، وهم لا ينطقون بأيِّ قول ينفعهم، ولا يأذن لهم الحقُّ بأنْ يُقدّموا أعذاراً أو اعتذاراً. ونقول لمَنْ يظنُّ أن المكذبين لا ينطقون: إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يُغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة.

بل إن بعضاً من هؤلاء المكذّبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادتْ به البشرية أو تطورتْ به حياةُ الناس، فيظن أن ذلك العملَ سوف يُنجيه.

إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظّهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله، ولم يكُنْ الحق في بالهم لحظة أنْ قدّموا ما قدّموا من اختراعات.

ولذلك يقول الحق: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

وهكذا نعلم أن أعمالَ الكافرين أو المشركين يُجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا بالمال أو الشهرة، ولكنها أعمالٌ لا تفيد في الآخرة، وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء، فيظنه العطشانُ ماءً، وما أنْ يقتربَ منه حتى يجده غيرَ نافع له.

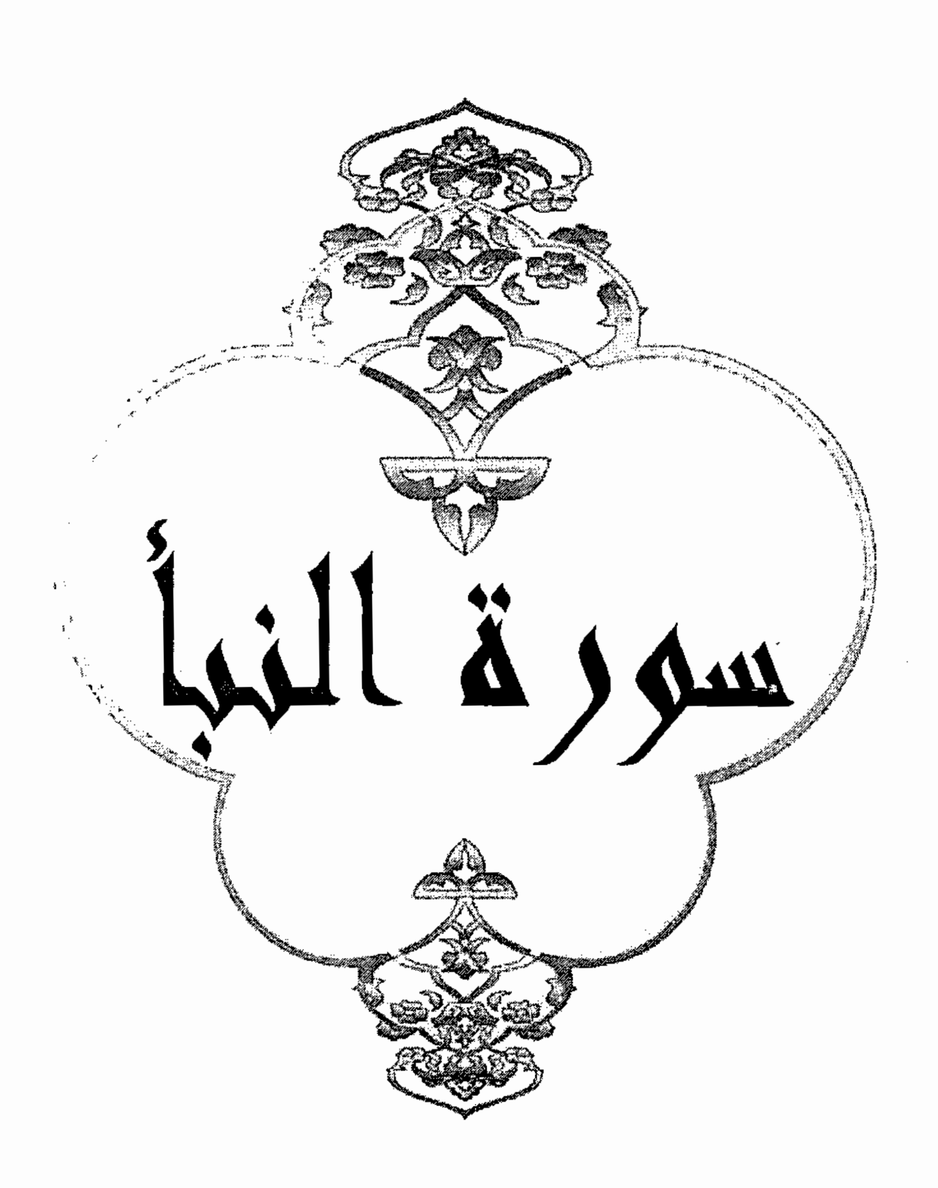
كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئًا يوم القيامة، والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقةَ شركه يوم القيامة، ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه، لذلك يقول كل واحد منهم:

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام] إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه، وهذا الإنكار لونٌ من الكذب.

إن المشركين يكذبون، ويقول الحق سبحانه عنهم: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة]

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يُقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يُقسمون في الدنيا، لكن الله يصفهم بالكذب، لقد كان بإمكانهم أنْ يُدلسوا على البشر بالحلف الكاذب في الدنيا، ولكن ماذا عن الله الذي لا يمكن أنْ يُدلسَ عليه أحد.

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هي فتنة كبرى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام]


سورة النبأ

سورة النبأ

النبأ العظيم

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ ﴾ [النبأ]

إنه الأمر الذي يقلب كيان هذه الدنيا كلها، والنبأ هو الخبر المهم، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر، ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر. مثال ذلك قوله الحق: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ﴾ [النبأ]

إذن: فكلمة (نبأ) هي الخبر المُهم الشديد الذي وقع وله أثر عظيم، فليس كل خبر نبأ، ذلك أن هناك المثير من الأخبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذي لا ينفع بالجهل الذي لا يضر.

ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ ﴾ [النبأ]

إذن: فكلٌ نبأ مُستقر، والمُستقر هو ما طُلب القرار فيه. والنبأ: مظروف. والمستقر: مظروف فيه. والمظروفية تنقسم قسمين: مظروفية زمان، ومظروفية مكان.

أي: أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زماناً ومكاناً يقع فيهما الخبر، وسوف يعلم الإنسانُ مُستقر كلّ خبر عندما يأذن الحقُّ بميلاد هذا المستقر الذي يُعلن فيه الخبر.

النبأ –إذن– هو الخبر العظيم المدهش، ولا أعظمَ من تجلِّي السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هي فيه من ضلال، وهو منهجٌ عام لكلِّ زمان ولكل مكان.

إذن: هو نبأ عظيم، لأنه يُخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض، ويلفت

كل الناس إلى منهج يُخرجهم جميعاً من أهوائهم، فلا أضرّ بالمجتمع من أنْ يتبع كلُّ إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها، والشهوات متضاربة، فإذا حكّم كلُّ إنسان هواه فلن تجد في الأرض قضية متفقاً عليها.

ولذلك تكفل الحقُّ سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج، وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء، وأما الأمر الذي تلتقي فيه الأهواء وهو استنباط ما في الأرض من كنوز واستكشاف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحقُّ سبحانه للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله، من الكون الذي خلقه الله، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التي يستكشفها في الكون.

ويؤكد لنا واقعُ الحياة هذه القضية، ونجد طموح العقل البشري عندما فكر في مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية.

والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته، ولا يُقال (نبأ) في خبر بسيط عادي الذي لا يُؤبَهُ له.. وقال سبحانه أيضاً عن النبأ: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبارُ بنبأ الآخرة ما سوف يحدثُ فيها، وهنا يأتي سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذي يختصُّ به عباده المخلصين المُتقين الذين يدخلون الجنة، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها.

ومعنى (نَبَأ) أي: الخبر الهام الذي يجب أنْ يُقال، ويجب أنْ يُنصتَ له، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعِظة.

فالخبر يكون من البشر للبشر، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ. أي: أمر عظيم ينبغي الاهتمام به، وأصله من النَّبْوَة، وهي الشيء العالي المستدير في وسط شيء مُستَوٍ.

فحين تقول: رأيتُ فلاناً اليوم، هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر، لذلك قال سبحانه: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ ﴾ [النبأ] أي: الخبر الهائل الذي هزّ الدنيا كلها، وملأ الأسماع، وزلزل العروش.


سورة النازعات

سورة النازعات

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ ﴾ [النازعات]

أسجد الله لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه، وتلك المهمة قد أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨ ﴾ [ق]

وقوله سبحانه: ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ ﴾ [النازعات]

إذن: هناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله، وكلَّ قول يقوله، وكلَّ فعل يفعله، بل ويكتبون هذه الأفعال، ومنهم مَنْ يحفظه من الشياطين، ومنهم مَنْ ينفذ أقدارَ الله في الأرض.

هؤلاء جميعاً لهم مهمة مع الإنسان، ولكن الأمرَ بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حَملة العرش وحُراس السماء وغيرهم ممّنْ ليستْ لهم مهمة مع الإنسان.

والحق سبحانه خلق الملائكة لا عملَ لهم، إلا أنهم هُيِّموا في ذات الله، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق، وهم: ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ ﴾ [النازعات]

ويقول تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ.. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

ومنهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الانفطار]

إذن: فهناك ملائكة لها علاقة بنَا وهم الذين أمرهم الحقُّ سبحانه أنْ يسجدوا لآدم حينما خلقه الله، وصوَّره بيده، ونفخ فيه من رُوحه.. وكأن الله سبحانه يقول لهم: هذا هو الإنسان الذي ستكونون في خدمته، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله، ويكتبون له كذا، ويعملون له كذا، ويُدبِّرون له الأمور.. الخ.

أما الملائكة الذين لا علاقةَ لهم بالإنسان، ولا يدرون به، ولا يعرفون عنه شيئاً، هؤلاء المعْنِيون في قوله سبحانه لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

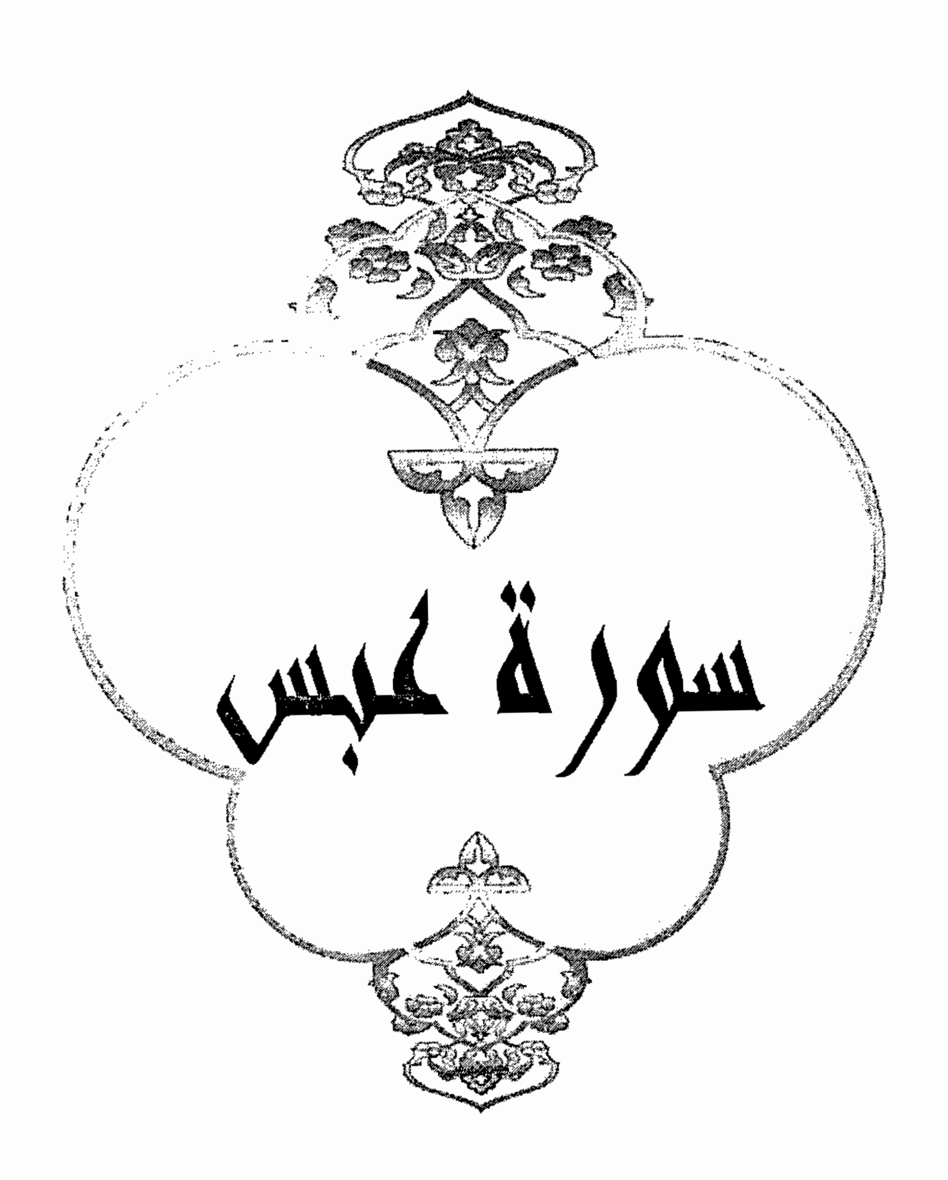
أي: أستكبرتَ أنْ تسجدَ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملَكي العالي؟

هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من كل أجناس الكون حتى من الملائكة، ألم يَقُلْ الحق سبحانه: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ.. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك، يُعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْي منك، لذلك نقول: كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدعاً.

يكفي أنْ أنظر إلى آيات الله التي تخدمني، وليس له قدرةٌ عليها، وليستْ تحت سيطرتي، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول: مَنِ الذي أعدّ لي كلَّ هذه الأشياء التي ما ادَّعاها أحدٌ لنفسه؟


سورة عبس

سورة عبس

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ [عبس]

رسول الله ﷺ يحرص أنْ تهتدي الأمة، وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه، فيعاتبه ربه لأنه كان يشقُّ على نفسه حرصاً على إيمان قومه.

وقد يظن بعضُ الناس أن عتابَ الله لنبيه لتقصير، ونرد على هؤلاء: ليفهم الإنسانُ منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي. فهناك فرقٌ بين عتاب لمصلحة المُعاتَب، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى.

ونضرب هذا المثل –ولله المثلُ الأعلى– أنت في يومك العادي إنْ نظرتَ إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه، فأنت تعاتبه وتُؤنّبه لأنه خالف المطلوبَ منه.

ولكنك إنْ وجدتَ ابنك يضع كلّ طاقته، ويصرف ويقضي أوقات راحته في المذاكرة، فأنت تطلب منه ألاّ يكلفَ نفسه كلَّ هذا العناء،

وتخطف منه الكتاب وتقول له: اذهب لتستريح. أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو، فكأنّ اللومَ والعتابَ له لا عليه.

إذن: قد حُلّ هذا الإشكال الذي يقولون فيه: إن الله كثيراً ما عاتب رسوله، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسولَ له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيراً سهلاً بين الضعفاء، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أنْ يتذوقَ المستكبرون المتجبرون حلاوةَ الإيمان.

وجاء في ذلك قول الحق: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس]

إذن: فالعتاب هنا لصالح مَنْ؟ إنه عتابٌ لصالح رسول الله ﷺ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

إن الآية تشير إلى أمر أغضبَ النبي ﷺ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفسُ البشرية من أمور حللها الله.

والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله ﷺ، ولشدة حرصه ﷺ على هداية القوم أجمعين، كان يحب أنْ يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم، ولكن الطغاة لا يريدون أنْ يتساووا مع المستضعفين.

فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله ﷺ خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسي وهم من المستضعفين، فقالوا:

يا محمد رضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إنْ طردتهم أنْ نتبعك.

وكأنهم يقولون له: إنك قد اكتفيتَ بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء، ولن نجلس معك إلا أنْ تبعد هؤلاء عنك لنجلس، فما كان من رسول الله ﷺ ببديهية الإيمان إلا أنْ قال: ما أنا بطارد المؤمنين.

إن رسول الله ﷺ يعرف أن هناك من أمثالهم مَنْ قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم. فقد قال قومُ نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

وحاول بعضٌ من أهل الكفر أنْ يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ فقالوا: إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلسَ معك، فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون.

ووجد رسولُ الله ﷺ في هذا الرأي حلاً وسطاً يمكن أنْ يقرِّبَ بين وجهات النظر، واستشار ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون.

وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أنْ يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك، وجيء بالدواة والأقلام، وقبل الكتابة نزل قول الله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ

حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]

ورمى رسول الله ﷺ بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله، وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله. والنبي ﷺ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعاً في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمةً بهم وشفقة عليهم.

ورأى ﷺ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئاً ولا ينقص لهم قدراً، فمال إليه فأنزل اللهُ الآيةَ ونهاه عما همّ به من الطرد، لا لأنه ﷺ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه.

وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك يجلس مع المستضعفين، وإنْ أحبَّ ﷺ أنْ يقومَ من المجلس قام، ولكن الله أراده أنْ يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أنْ نهاه عن طردهم، وأنْ يكرمهم سبحانه بما أُهيجوا فيه، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسولُ الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم.

فقال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

[الكهف]

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ: ((الحمد لله الذي جعل في أمتي منْ أمرني أنْ أصبر نفسي معهم)).

وبهذا القول الكريم أراد الحقّ سبحانه وتعالى إكرامَ الضعفاء والمستضعفين. ويقول سلمان الفارسي وخباب بن الأرت: فينا نزلتْ، فكان رسولُ الله ﷺ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمسّ ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ فترك القيام عنا إلى أنْ نقوم فكنا نعرف ذلك ونُعجله القيام.

أي: أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله، فقول الحق: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ.. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]

هذا هو قول الله سبحانه أمر به رسولَ الله، ومأمورٌ به كذلك كلَ إنسان من بعد رسول الله، وفي هذا قمةُ التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين، لأنهم أهلُ محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه.

وهاهو ذا أحدُ خلفاء المسلمين، وقد جاءه صناديدُ العرب الذين أسلموا، واستأذنوا في الدخول إليه، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين، فَورمَ أنفُ كل واحد من هؤلاء الصناديد، وقالوا: أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن؟ لقد صرنا مسلمين.

فقال قائلٌ منهم يفهم ويفقه أمر الدين: أكلكم ورم أنفه أنْ يؤذن لهؤلاء قبلكم، لقد دُعُوا فأجابوا، ودُعيتُم فتباطأتم، فكيف بكم إذا دُعُوا إلى دخول الجنة وأُبطيء دخولكم.

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجهَ الله، وكلمة (وجه الله) تدل على أن الإيمانَ قد أُشْرِبَ في قلوبهم، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِرارا بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر

والضلال. إنهم قد حلا لهم الإيمان، وحلا لهم وجهُ الله، وحلا لهم أنْ يؤجلَ لهم كل الثواب إلى الآخرة.

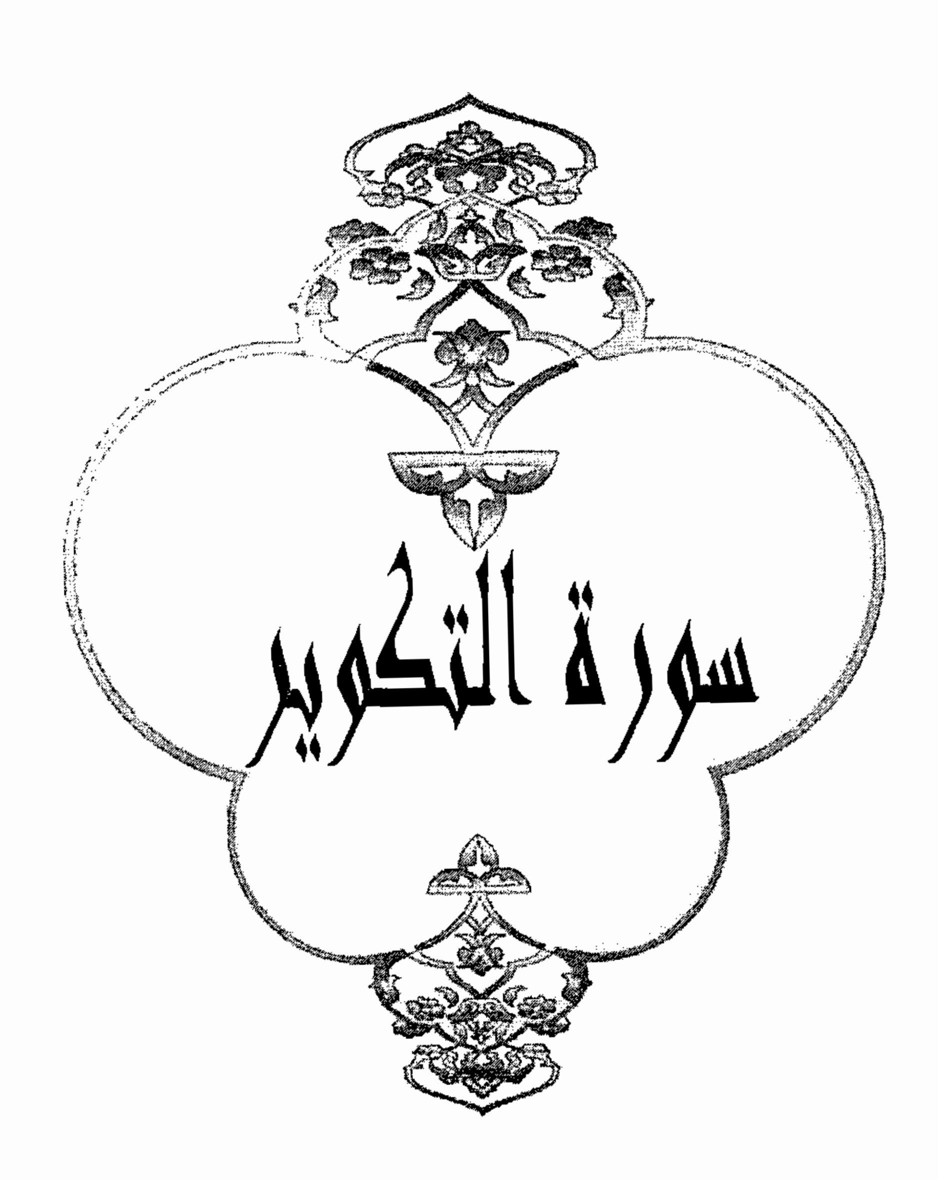
ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله، لا لأنه خالف، ولكن لأنه حَمّلَ نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة، مثل مَنْ يثيرون قصةَ ابن أم مكتوم، فيقولون: النبيُّ أخطأ ولذلك قرَّعه الله ووبَّخه.

نقول لهم: كان الرسولُ يرغب أنْ يؤمنَ به صناديدُ قريش العتاة الكافرون، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أنْ يستفهم، وكان من الأسهل أنْ يتعرّض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه!

لكن النبي ﷺ ترك السهل وذهب للصعب، فكأنه سبحانه يتساءل: لماذا أتعبتَ نفسك. ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [عبس] أي: ما الذي يجعلك تتعب؟ إذن: فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف.

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً في قصة عبد الله بن أم مكتوم، حينما انشغل عنه رسولُ الله بكبار قريش، والمتأمل في هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شيء، فالكلام معه ميسورٌ وأمر سَهْل، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم، ولديهم مع ذلك لَدَد في خصومتهم للإسلام، والنبي ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه في جدالهم أملاً في أنْ يهدي الله بهم مَنْ دونهم.

إذن: النبي في هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب، وربه يُعاتبه على ذلك، فهو عِتَابٌ لصالحه، له لا عليه.


سورة التكوير

سورة التكوير

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير]

الشمس، والنجوم، والجبال. ثلاثة أشياء خلقها الله لخدمة الإنسان.

فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتُعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على مَنْ يعبدون الله، ومَنْ يعبدون أوثاناً من دون الله، والهواء يتنفسه مَنْ قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يقُلها.

وكلُّ النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعاً، وهذه رحمة.. فالله ربُّ الجميع منْ أطاعه ومنْ عصاه، وهذه رحمة، والله قابل للتوبة، وهذه رحمة.

وقد بيَّن لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفتنا اليها، فالسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها، والشمسُ والقمر مُسخَران لخدمة الإنسان، وهذه كلها آياتٌ لا يستطيع أحدٌ من خَلق الله أنْ يدعيها لنفسه أو لغيره.

فلا يوجد حتى يوم القيامة مَنْ يستطيع أنْ يدعي أنه رفع السماءَ بغير عَمد، أو أنه خلق الشمسَ والقمر وسخَّرهما لخدمة الإنسان، ولو تدبر الناسُ في آيات الكون لآمنوا، ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات.

وقد مكَّننا سبحانه في الأرض وجعل لنا فيها وسائلَ استبقاء الحياة، وترف الحياة، وزينة الحياة، ورياش الحياة، ولم تبخل الأرضُ حين حرثناها، بل أخرجتْ لنا الزرع، ولم تَغب الشمسُ عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها.

ما في الدنيا يؤدي مهمته، ولم نُمكَّن في الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله. وكان يجب ألاَّ يغيبَ ذلك عن أنظارنا أبدا، فلا أحد منا مُسيطرٌ على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض.

ولكن الذي خلقها وجعلها مُسخَّرة، هو ربك وربها فأنت مُمكَن، وكلَّ شيء مُستجيب لك بتسخير الله له. ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف]

و(معايش) جمع معيشة، والمعيشة هي الحياة. فالعيشْ هو مقومات الحياة، ولذلك سَموْا الخبز في القرى عَيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مُقوّم أساسي في الحياة.

فالحياة التي وهبها الله لنا، والآيات التي أودعها في كوْنه تدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً، فالكونُ بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان.. ولا يستطيع أحدٌ أنْ يدّعيه لنفسه.

فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدّعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض، أو وضع قوانين الكون، أو أعطى غلافها الجوي، أو خلق نفسه، أو خلق غيره.

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى، وهي التي أوجدتْ، وهي التي خلقتْ، وهذه الآيات ليستْ ساكنة، لتجعلنا في سُكونها ننساها، بل هي متحركة لتلفتنا الي خالق هذا الكون العظيم.

فالشمس تشرق في الصباح فتُذكّرنا بإعجاز الخلق، وتغيب في المساء لتذكرنا بعظمة الخالق.. وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كلَّ

يوم علّنا نلتفت ونفيق.. والمطر ينزل من السماء ليُذكّرنا بألوهية مَنْ أنزله، والزرع يخرج من الأرض يُسقَي بماء واحد.

ومع ذلك فإن كلّ نوع له لونٌ، وله شكل، وله مذاق، وله رائحة، وله تكوينٌ يختلف عن الآخر، ويأتي الحصادُ فيختفي الثمر والزرع، ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد.

كلُّ شيء في هذا الكون متحرك ليُـذكّرنا إذا نسـينا، ويُعلمنـا أن هناك خالقاً عظيماً.

ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية، فنعم الله لا تُعد ولا تُحصى.. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى، وتعطينا الدليل الإيماني على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً.. وأنه لا أحدَ يستطيع أنْ يدّعي أنه خلق الكونَ أو خلق ما فيه.

فالقضية محسومة لله والْحَمْدُ للَّهِ، لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري، ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه، بل إن كلّ شيء في هذا الكون يقتضي الحمد، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الوجود وينسى الموجود !! فأنت حين ترى زهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع.

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته في الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقاً، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والإنسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحدٌ أنْ يدعي أنه خلقهم.

ولا أحد يمكن أنْ يدّعي أنه خلق نفسه أو غيره، ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أنْ يُوجد مصادفة، لأن المصادفات أحداثٌ غير

مُرتَّبة أو غير مُنظمة، ولو وُجدَ هذا الكونُ بالصدفة لتصادمتْ الشمسُ والقمر والنجوم والأرض ولاختلّ الليل والنهار.

ولكن كلّ ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقتْ ونظمتْ وأبدعتْ، فإذا جاءنا رسولٌ يُبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلا بُدّ أنْ نُصدِّقه.

كلُّ شيء في الكون له نظام: للشمس بروج، وللقمر منازل، وللنجوم مواقع، وكلّ أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات، وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيتُ للناس والحج.

والبشرية بكل ما وصلتْ له من إنجازات علمية قد وصلتْ إلى القمر فقط، وهو مجرد ضاحية من ضواحي الأرض، ومفصول عنا بمسافة تُقاس بالثواني الضوئية، ولقد تعوّدنا في حياتنا أنْ نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة.

لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليستْ ذات نفع في قياس أبعاد النجوم؛ لأننا نعرف مثلاً أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال، ولكن عندما نريد أنْ نرصد المسافةَ بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نُضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما، وهذا يجعل التعبير غير عملي.

ولهذا السبب وضع علماءُ الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم، وهي ما نسميه السنة الضوئية، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، ولذلك فقياسُ أيِّ

مسافة بيننا وبين أيِّ نجم في السماء أمرٌ يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة.

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال، ويصلنا ضوؤها في خلال ثماني دقائق وثلث الدقيقة، والشِّعرى اليمانية وهي ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضؤوها في تسع سنوات ضوئية.

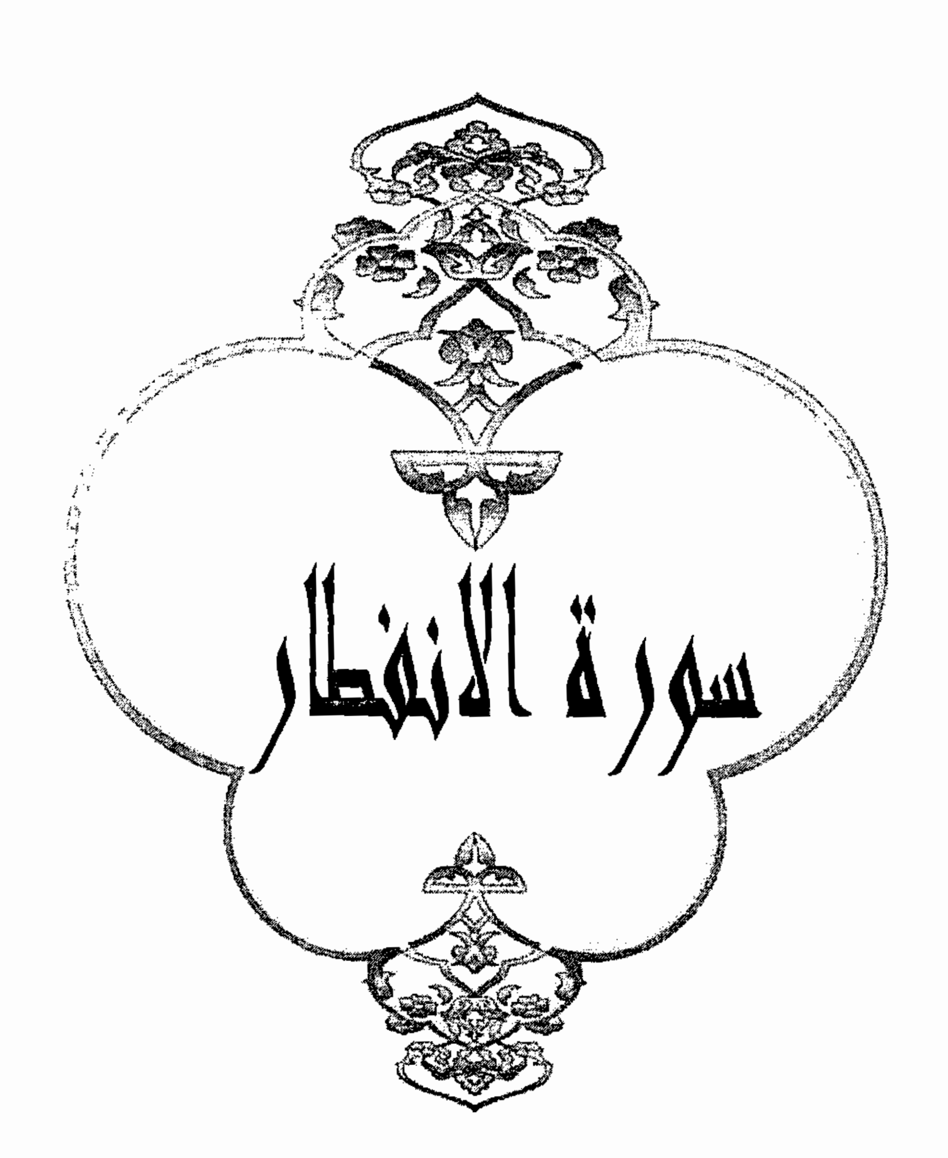
إذن: فالسنة الضوئية هي وحدةٌ لقياس المسافات الفلكية، ونحن نذهل عندما نعرف أن بعضَ النجوم يصل ضؤوها إلينا في خمسين سنة ضوئية!! كلُّ ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا، فما بالنا ببقية السماوات؟

إذن: فحدود ملك الله فوق تصورنا.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ.. ﴾ [البقرة]

يعني: يأتيهم بما لم يكُنْ في حُسبانهم، هل ينتظرون حتى يروا ذلك الكونَ المُنسق البديع قد اندثر، والكون كله تبعثر، والشمس كُورت، والنجوم انكدرتْ، وكل شيء في الوجود تغير، وبعد ذلك يُفاجأون بأنهم أمام ربهم.. فماذا ينتظرون؟

إذن: يجب أنْ ينتهزوا الفرصة قبل أنْ يأتيَ ذلك الأمر، وقبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ويُنهي أمد رجوعهم إلى الله. لماذا يُسوِّفون في أنْ يدخلوا في السلم كافة؟ ما الذي ينتظرونه؟ أينتظرون أنْ يتغير الله؟ أو أنْ يتغير منهجُ الله؟ إن ذلك لن يحدث.


سورة الانفطار

سورة الانفطار

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار]

يقول الحق سبحانه: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ ﴾ [الانفطار]

أي: أن الحق سبحانه يُنبه هنا إلى يوم الهَوْل الأعظم الذي تنشقُ فيه السماء، وتتساقط فيه الكواكبُ، فلا يؤدي أيُّ شيء منها مهمته، لأن الله سبحانه سلبها ما كانت به صالحة.

ويقول أيضاً: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ﴾ [الملك]

فالحق لا يعجز عن شيء، وهو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل في هذا الخَلق، وليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجدَ أيَّ خلل من شقوق أو فروق.

و(فطور) هنا معناها شقوق. إذن: فالحق سبحانه -بتمام قدرته- يعطي الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلِق

له، فلا يظنن ظانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه وخلق السماوات والأرض بتمام إبداع وإحكام، وهو القادر على أنْ يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين في أيِّ وقت شاء، ومثلهما الشمس تُكَوَّر، والنجوم تُطْمَس، والجبال تُنسف.

لقد خلق الحق سبحانه السماوات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته، فهو القائل: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ ﴾ [يس]

فيا مَنْ تريد النظامَ دليلاً على حكمة الخالق المُوجد خُذها في النظام الأعلى، ويا مَنْ تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية. خُذها في الأفراد؛ لأنه لو حصل شذوذٌ في الكون الأعلى لفسدتْ السموات والأرض.

لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان فلا يحدث خللٌ في الكون، لذلك نجد الشذوذ إنما يأتي فيما فيه عوض، والنظام يأتي فيما في تركه فساد، يقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ.. ۝ ﴾ [الأنعام]

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحقِّ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض ويُنهي الدنيا ويُزيلها، فتمور السماء، والكواكبُ تنتثر وتتساقط، فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق.

فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق، بل إنهاءُ الخلق وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة، لأنه سبحانه قال في البدء: (كُنْ) فكان

الكون، وفي النهاية يقول: (كن) فيكون إنهاءُ الخلق ليعطي للمحسن جزاءَ إحسانه، ويحاسب المُسيء.

فالمحسنَ قد يشقى بإحسانه طول عمره، ولا بدَّ له من ثواب، والمُسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً، فمن الخير والعظمة أنْ تنتهي الحياةْ ليأتي يوم الحساب لينال كلٌ جزاءه.

إذن: فخَلق السموات والأرض حقٌ، ويوم يقول كُن فيكون قوله الحق، فالحقُ في الإيجاد، والحقُ في الإعدام، إنّه حاصلٌ في بدء الخلق، وفي نهايته.

أحد الصالحين سمع قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ [الانفطار]

فأجاب هو: غرّني كرمه، لأنه خلقني وسوّاني في أحسن صورة، وعاملني بكرم ودلّلني، حتى أصابني الغرور بذلك، ولو أنه عزَّ وجل قسَا علينا ما اغتررنا.

والغرور أنْ تخدعَ إنساناً بشيء مُفْرح في ظاهره، مُحزن في باطنه، تقول: ما غرّك بالشيء الفلاني كأنَّ في ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ [الانفطار]

سوّاك. أي: كاملاً مُستوياً (ملو هدومك). والتسوية: هي إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته في الحياة، وقلنا: إن العود الحديد السَّوِيّ مستقيم، والخُطاف في نهايته أعوج، والاعوجاجُ في الخُطاف هو عيْن

استقامته واستواء مهمته، لأن مهمته أنْ نخطفَ به الشيء، ولو كان الخطافُ هذا مستقيماً لمَا أدَّى مهمته المرادة.

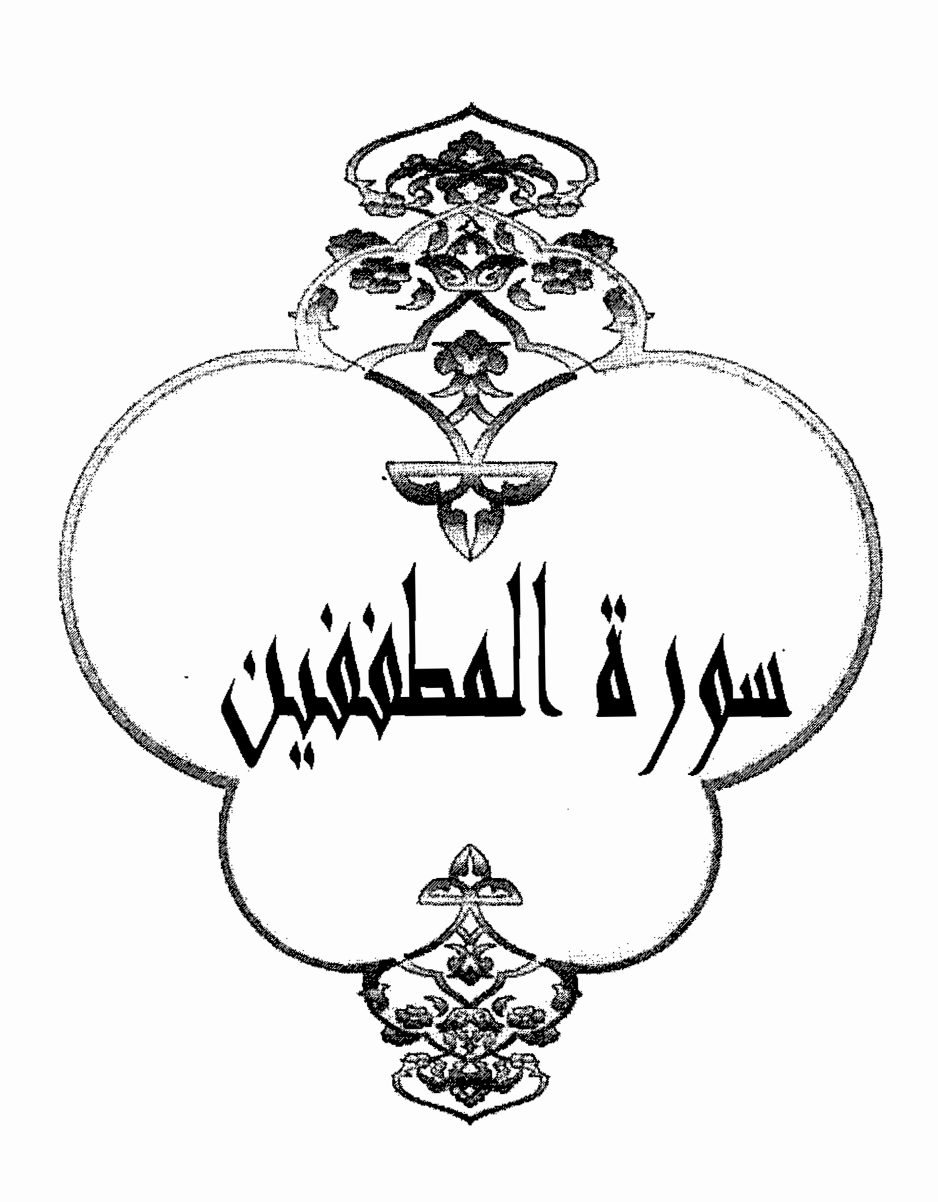
ويقول سبحانه في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك، ولكن من غير المقبول أنْ تكونَ خَصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاكَ فَعَدلك، وفي أيِّ صورة ما شاء ركَّبك.

ويقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران]

أي: سيُصوِّر وهو عالم أن ما يُصوِّره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له: هذه لا تعجبني وسأصور صورة أخرى، لا لأن الذي يفعل ذلك عزيز، أي: لا يُغلب على أمر، وكل ما يريده يحدث، وكل أمر عنده لحكمة.

فعندما يقول: ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران] قد يقول أحدُ الناس: إن هناك صوراً شاذة وصوراً غير طبيعية. وهو سبحانه يقول لك: أنا حكيم، وأفعلها لحكمة فلا تفصل الحدثَ عن حكمته، خُذ الحدثَ بحكمته، وإذا أردتَ الحدث بحكمته تجده الجمالَ عينه، وهو سبحانه المُصوِّر في الرحم كيف يشاء، هذا من ناحية مادته.


سورة المطففين

سورة المطففين

﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين]

فحين يكتال يستوفى ويُطفف. أي: يزيد ما سوف يأخذه شراء، وحين يبيع يُقلل الكيلَ أو الوزن ليأخذَ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل. وأصل المبادلات غالباً بين طرفين.

وبعضُ المُتنطِّعين يقول: كيف يقول الحق سبحانه ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ [المطففين] والتطفيف في أيِّ مسألة يكون بالزيادة، لا بالنقص. ونقول: انتبه إلى أن المُتحدِّث هو الله، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف، وكلُّ صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء. فإنْ أراد واحد أنْ يجعلَ الخسران على طرف، وأنْ يستوفي لنفسه فهو مُطفف.

ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ربنا: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ.. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيلَ والميزانَ بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته في التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أنْ تتحكم فيه أشياء لا تدخل في الاستطاعة.

ففي ضبط المكيال والميزان قال ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ.. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] فالمكيالَ والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروفٌ لا تدخل في نطاق الإنسان.

ولذلك قلنا: إن وزنَ الأشياء التي نعلمها إنْ كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسةٌ فوزنها له آلة، وإنْ كانت في المتوسط فوزنها له آلة، وإنْ كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء.

وإليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها، يقول الحق تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ.. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً، والتي تُقدّر بالمليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر، وتُقاسُ بها الأشياء كُلٌّ على حَسْبه،

فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتيمتر، والحجرة تُقَاس بالمتر، أما الطريق فيُقَاس بالكيلومتر وهكذا.

إذن: فالتقدير الطُّولي يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذي نقيسه، هذا في الطوليات، أما في المساحات فيأتي الطول والعرض، وفي الأحجام: الطول والعرض والارتفاع. وفي الكُتَل يأتي الميزان.

إذن: فالحياة محكومة في تقديرات الأشياء بالكيْل الذي يُبيِّن الأحجام، وبالميزان الذي يُبيّن الكتلة، لأن الكيْلَ لا دخلَ له في الكتلة، إنما الكتلة تُعرف بالميزان، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبرُ بكثير من كيلو الحديد.

ومعنى ذلك أن ميزانَ التقدير يجب أنْ يكونَ سليماً، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ.. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] يعني: أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص.

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزيدون، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس، أي: أخذوا منهم أخذوا حقَّهم وافياً، وهذا لا لَوْم عليه، وإنما اللوم على: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين]

أي: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾ أي: يُنقصون.

هذا هو موضعُ الذمِّ ومجالُ اللوْم في الآية، لأن الإنسانَ لا يُلام على أنه استوفى حقَّه، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين، ولم يعامل الناسَ بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به.

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون في الكَيْل والميزان فحسب، لكنه أيضاً في السعر، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراما مثلاً فقد بخسك في الوزن، وطفَّفَ عليك في الثمن أيضاً.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ .. ۝ ﴾ [الإسراء] أي: اجعلوا الوزنَ دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه.

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقَّه، هكذا: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ.. ۝ ﴾ [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دِقَّته، وجَعَله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم. إذن: لماذا هذه الدِّقة في الميزان بالذات؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة، قلَّما يستطيع الإنسانُ الغِشَّ فيها، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلم تلاعبه، لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف.

أما الوزن فغير ذلك، الوزنُ مجالٌ واسع للتلاعب، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزنَ دون أنْ يدري بهم أحدٌ؛ لأن الميزان كما نعلم رافعةٌ من النوع الأول، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط، وكِفَّة القوة في ناحية، وكِفَّة المقاومة في الناحية الأخرى، فأيُّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان، وأيُّ تلاعب في كِفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان.

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطالَ بنا المقام؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه مجالٌ واسع للغشِّ والخداع وأكْل أموال الناس.

وسبق أنْ أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه، ويتناسب مع قيمته ونفاسته، فالذي يزن الجير مثلاً غير الذي يزن اللوز، غير الذي يزن الذهب أو الألماس.

لذلك من معاني (القسطاس المستقيم) أن يتناسبَ الميزانُ مع قيمة الموزون، فالذي يبيع الذهبَ مثلاً يزن أشياءَ ثمينة مهما كانت قليلة في الميزان، فإنها تساوي الكثير من المال.

لذلك فإن أهل الخبرة في هذه المسألة يقولون: احذر أنْ يُدخل البائع رأسه قريباً من الميزان، لأنه قد ينفخ في كِفَّة الميزان، ولا شكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة!!

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذتْ أيديهم على الغش والخداع في البيع والشراء: أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها، وفي الوقت نفسه تشتري أشياء كثيرة من متطلبات الحياة، فاعلم جيداً أنك إنْ غششْتَ الناسَ في سلعة واحدة فسوف تُغشّ في مئات السلع، وأنت بذلك خاسرٌ لا محالة. مهما دارتْ بك الأوهام والظنون فحسبتَ أن المسألة في صالحك.

ولا تنسَ أن فوقك قيُّوماً، لا تأخذه سنَةٌ ولا نوم، ولا تَخفي عليه من أمرك خافية، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبينَ لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة، لأنك إنْ عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السماء، وسوف تذهب هذه الأموال التي اختلستها من أقوات الناس من حيث أتتْ، كما قال النبي ﷺ: ((منْ أصاب مالا من مهاوش أذهبه اللهُ في نهابر)).

وكذلك في المقابل: مَنْ صدق الناسَ ووفَى لهم في بيعه وشرائه وتعاملاته يسَّر اللهُ له مَنْ يُوفِّي له ويصدُق معه.

ثم يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ ذَٰلِك ﴾ أي: الوزن بالقسطاس المستقيم خيرٌ وأحسنُ ﴿ تَأْوِيلا ﴾ أي: عاقبة، ومعنى ذلك أن المقابلَ له ليس خيراً ولا أحسنَ عاقبة، فالذي يغشُّ

الناسَ ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد في ماله ويجلب الخير لنفسه.

نقول له: أنت واهم، فليس في الغش والبخس خير سيُجرِّئ الناسَ عليك فيغشُّوك، هذه واحدة ثم لا يلبث الناسُ أنْ يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك.

إذن: عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر، ولا هو أحسن عاقبة.

أما التاجر الصادق الذي يُوفِي الكَيْل والميزان، فإن الله تعالى يُيسِّر له منْ يُوفي له الكيلَ والميزان، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] أي: أحسن عاقبة.


سورة الانشقاق

سورة الانشقاق

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ ﴾ [الانشقاق]

إنها لم تنتظر إلا سماع الأمر فقط، وساعةَ تسمع الأمر فهي تنفعل، ومعنى تنفعل أي: تطيع. وكلٌّ الكون مُطيع لخالقه سبحانه وتعالى.

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون، فمنه أُذُن، ومنها أَذَان، وكلها يُراد بها الإعلام، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع، حتى الذي سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع، ثم يكتب ويقرأ.

وما قرأ إلا بعد أنْ سمع، لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أنْ يسمع أسماء الحروف (ألف)، (باء) الخ، ثم تهجاها. إذن: فلا أحدَ يقرأ إلا بعد أنْ يسمع، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات.

ويقول الحق سبحانه فى القرآن: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا.. ﴾ أي: سمعتْ لربها، فبمجرد أنْ قال لها: انشقي. امتثلتْ وانشقتْ. وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأنْ تنشقَّ؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة، هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بناها.

وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ ﴾ [ق] وهي أيضاً تسمع أمر ربها، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

أي: أنها امتلكت حاسة السمع، لأن (أذنت) من الأذن وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله تنفعل وتتشق.

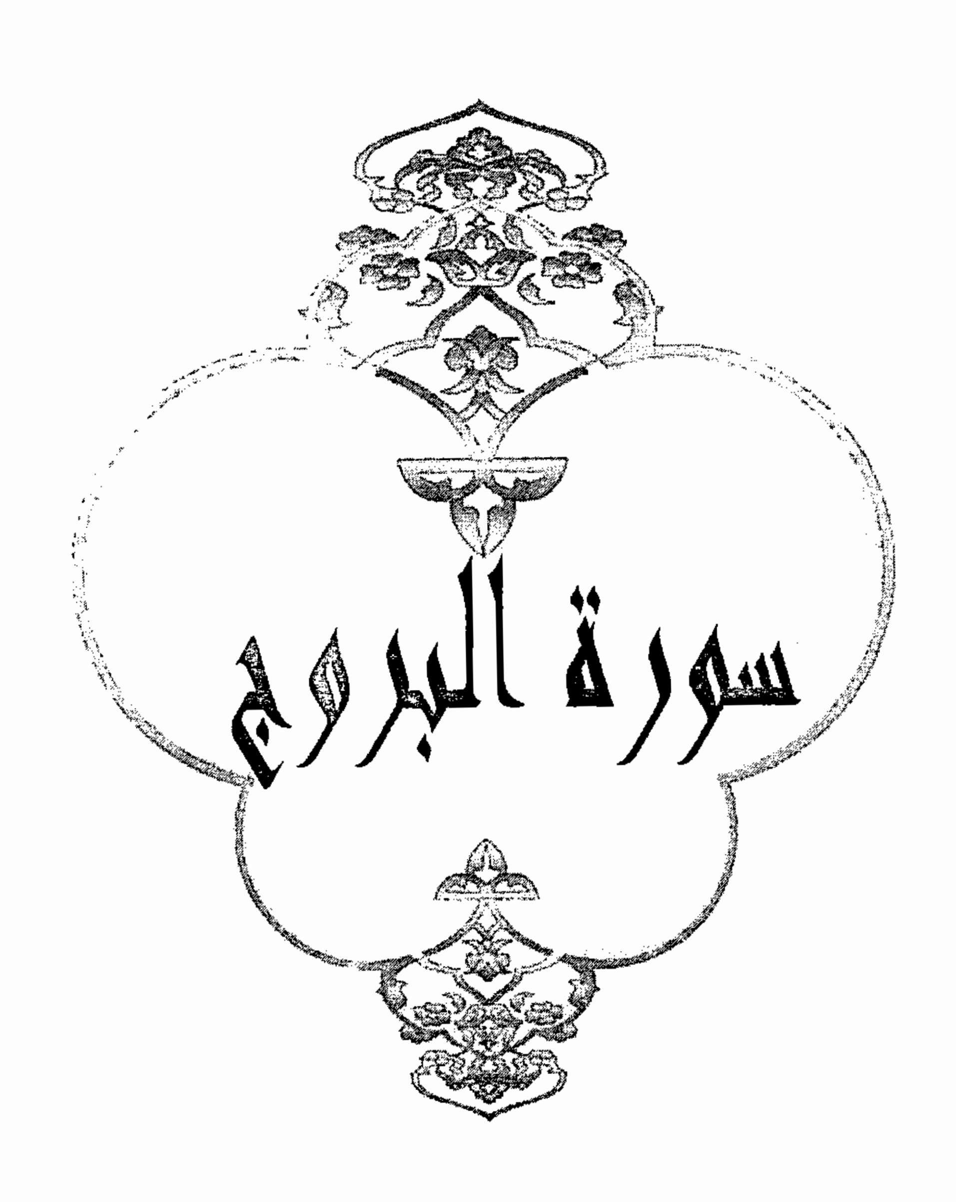
أي: أنها لم تسمع الأمر فقط، بل نفَذتْه فوْر صدوره دون أدْنى ذرة من تخلّف، فأمْر الله يُنفَّذ فوْر صدوره من الحق سبحانه، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ ﴾ [الانشقاق] كان العرب قديماً يقولون: مددتُ الأديم. عندما يسلخون الجلد عن الذبيحة لينتفعوا به، فعند دبغه على الطريقة البدائية يحدث له تقلص فيقل حجمه، يحدث فيه نتوءات، فإذا بُسطت هذه النتوءات عاد إلى حجمه الطبيعى.

فكأن الحق سبحانه يقول: إن الجبال ستكون كالعهن المنفوش، والأرض والنتوءات والارتفاعات سوف تُمد، والمقصود أنها مُدّتْ واتسعت لأجل أن يقف الخلق عليها جميعاً، ليس الوقوف لضيق المكان، لأن المقصود أن نقف، لا نستريح إلى أنْ يأتي وقت حسابنا.

﴿ وَأَلْقَت مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ ﴾ ألقتْ الأرضُ ما فيها. إما القبور أى: الأموات بُعثوا، أو الكنوز والدفائن إلى آخر ذلك. وكلمة ﴿ وَتَخَلَّتْ ۝ ﴾ [الانشقاق] تفيد الاحتياط فى تنفيذ الأمر بشدة.

﴿ وَأَذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ ﴾ [الانشقاق] أى: انقادت لأمر الله مثل السماء تماماً.


سورة البروج

سورة البروج

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾

الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس أن البروج هي أسماء من اللغة السريانية، وهو: برج الحَمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والعذراء، والأسد، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وعددها اثنا عشر بُرجاً.

هذه هي أبراج الشمس، ويتعلق بها مواعيد الزرع والطقس والجو، ويجب أنْ نفهمَ أن لله في البروج أسراراً، بدليل أن الحقَّ سبحانه وتعالى جعلها قَسَماً حين يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾ [البروج]

ولذلك تجد أن التوقيت في الشمس لا يختلف، فالشهور التي تأتي في البرد، والتي تأتي في الحر هي هي، وكذلك التي تأتي في الخريف، والربيع، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوماً.

السنة القمرية هي التي تُستخدم في التحديد التاريخي للشهور العربية، ونعرف بداية كل شهر بالهلال:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا.. ۝٣٦ ﴾ [التوبة]

ولذلك كانت تكاليفُ العبادة محسوبةً بالقمر حتى تسيح المنازل القمرية في البروج الشمسية، فيأتي التكليف في كلِّ جو وطقس من

أجواء السنة، فلا تصوم رمضان في صيف دائم، ولا في شتاء دائم، ولكن يُقَلِّبُ اللهُ مواعيد العبادات على سائر أيام السنة.

والذين يعيشون في المناطق الباردة مثلاً لو كان الحج ثابتاً في موسم الصيف لمَا استطاعوا أنْ يؤدوا الفريضة، ولكن يدور موسمُ الحج في سائر الشهور، فعندما يأتي الحج في الشتاء يُيسر لهم مهمة أداء الفريضة في مناخ قريب من مناخ بلادهم.

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضتْ أنْ تدور مواقيتُ العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كلُّ الناس حسب ظروفهم المناخية أنْ يُؤدوا العبادات بلا مشقة. إذن: فالمنازل شائعة في البروج، وهذا سبب قول بعض العلماء: إن ليلة القدر تمرُّ دائرة في كل ليالي السنة، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج.

إذن: فهناك بروج للشمس، ومنازل للقمر، ومواقع للنجوم، ومواقع النجوم التي يُقسم بها اللهُ سبحانه في قوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة]

ولعل وقتاً يأتي يكشف الله فيها للبشرية أثرَ مواقع النجوم على حياة الخلق، وذلك عندما تتهيأ النفوسُ لذلك وتقدر العقولُ على استيعابه.

إذن: كلُّ شيء في الكون له نظام: للشمس بروج، وللقمر منازل، وللنجوم مواقع. وكلُّ أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات.

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة لكن المطالع مختلفة، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ في البناء.

فتطلع الشمسُ كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق، وتظل تقطعها، ثم تعود مرة أخرى، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمّى أي يومياً.

ونُسمِّي نحن تلك المنازل (البروج) كبرج الحَمَل ؛ والجَدي؛ والثور؛ والأسد؛ والسنبلة؛ والقوس؛ والحوت؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة، وبرودة، ومطر، وغير ذلك.

ذلك أن كُلَّ برج له زمن، ويمكن تعريفُ أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة.


سورة الطارق

سورة الطارق

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

حين يكيد الله فلا أحدَ بقادر على كَيْده، فكيد الله لا غالبَ له، وهو كَيْد غيرُ مفضوح لأحد، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

ويقول تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل]

فمن معاني التقلب تقلّبهم في الأفكار والمكْر السيء بالرسول ﷺ وصحابته كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ.. ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يُخطِّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة في مَهْدها.

ويقول تعالى: ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل]

المُعجز: هو الذي لا يمكِّنك من أنْ تغلبه، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله تعالى، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه، لأنهم مهما بيَّتوا، فتبييتهم وكَيْدهم عند الله.. أما كيْدِ الله إذا أراد أنْ يكيدَ لهم فلن يشعروا به:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

وقال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

فمَنْ لا يستطيع أنْ يغلبك يخضع لك، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذي جئْتَ به.

وقد يكون العجزُ أمام القوىّ دليلَ قوة، كما عجز العربُ أمام تحدِّي القرآن لهم، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم في المجال الذي تحدَّاهم القرآن فيه، لأن الله تعالى حين يتحدَّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف، لا بل ينازل القوي في مجال هذا التحدِّي.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

ونرى أن الحق سبحانه قد أفاء على بعض الناس من النعمة الشيء الواسع والكثير، ومن بعد ذلك يطغى أهلها بالنعمة فيُمهلهم ربنا إلى أنْ يعلوَ أمرهم، ثم يأخذهم أخْذَ عزيز مقتدر.

وحياتنا المعاصرة خيرُ شاهد على ذلك؟ فكلُّ بلد أخذتْ نعمة الله لتحاجَّ بها الله، وتكون ضد منهج الله نجدها تبوء بالفساد، ويأتي بأسُ أهلها فيما بينهم شديداً ويُخربون بيوتهم بأيديهم.

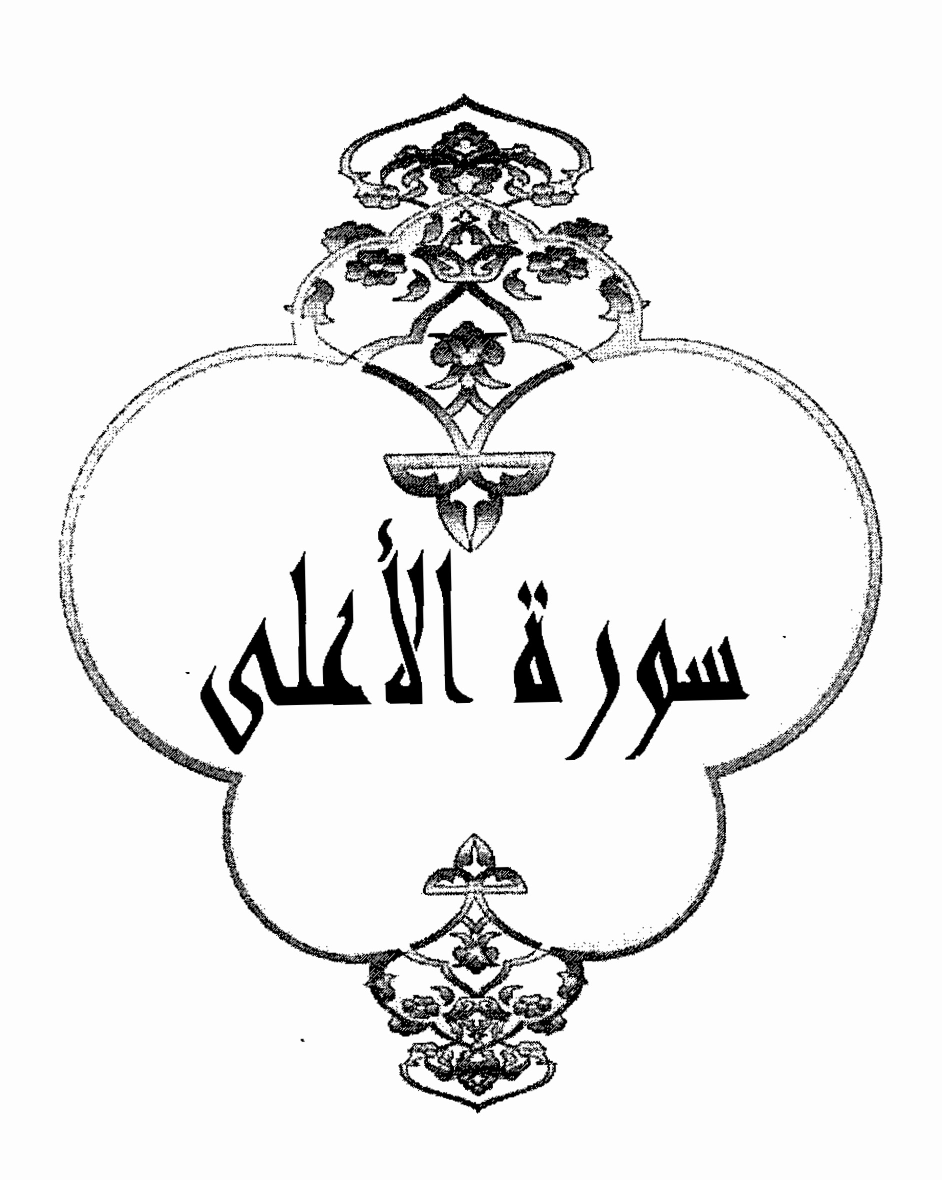
وكم من بلاد كانت متعةُ الناس أنْ يذهبوا إليها للترف أو الانفلات، ثم يأتي بأسُ أهلها بينهم وتُخرب بأيدي أبنائها، وفي واقع الكون ما يؤيد صدق ذلك، وكأن الحق سبحانه يقول لنا: اعتبروا يا أولي الأبصار.

والحق إذا أراد أنْ يأخذ جباراً أخْذَ عزيز مقتدر فهو يُمهله، ويُرخي له العِنان ليتجبر -كفرعون- من أجل أنْ يأخذه بغتة، كأنه يسقط من أعلى، فيعليه من أجل أنْ ينزلَ به -كما يقولون- على جذور رقبته.

ولذلك يقول تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة]

أي: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم، أما نهايتكم فاستدامة عذاب في الدنيا وفي الآخرة. وأسباب العذاب مجتمعة لكم في الدنيا، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة.

ونتيجة تربُّصنا لكم أنْ نرى السوء يصيبكم، وتربُّصكم لنا يجعلكم تروْنَ الخير وهو يسعى إلينا، إذن: فنتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن.


سورة الأعلى

سورة الأعلى

مصدر العلم!

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

العلم كله مرجعه لله سبحانه وتعالى، لأنه مصدرُ العلم والحكمة، وقد وصف سبحانه نفسه بالعليم الحكيم، والعليم أى: الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً، والحكيم: هو مَنْ يضع كلَّ أمر فى نصابه، ويجعل لكلِّ حركة هدفاً ينسجم مع بقية الحركات والأهداف.

فيصير الكونُ محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويصبح لكلِّ كائن إطاره وحدوده، والحكمة هى أن يؤدى كلَّ شيء ما هو مطلوبٌ منه ببراعة.. وإذا كان الكونُ مخلوقاً من قبَل حكيم عليم، فإنْ كلّ ما به موضوعٌ فى موضعه.

والحكيم لا بُدَّ أن يكون عليماً، لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كلَّ ما يصنع بحكمة.. ومن حكمته أنْ أعطى لكلِّ مخلوق من خَلْقه من العلم على قدر حاجته، فليس من طبيعة الملائكة مثلاً أنْ تعرف ماذا سيفعل الإنسان الذى سيستخلفه اللهُ فى الأرض، ولكنهم موجودون لمهمة أخرى.

وميَّز اللهُ الإنسان بالعقل ليستكشف من آيات الله فى الكون على قدر حاجة حياته، يقول الله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

إذن: فإن هناك علماً مطلقاً وعلماً نسبياً، وكذلك غيبٌ مطلق وغيبٌ نسبى، والغيبُ المُطلق لا يعلمه إلا العلم المطلق.

وليس هناك علمٌ مُطلق إلا لله سبحانه وتعالى، وهو بالتالى الذى يعلم الغيب المطلق، ذلك الغيب الذى ليس له مقدمات تنبئ به، ويفاجيء الناس ولا يعلمه إلا الله وحده.

أما الغيب النسبىّ فهو الغيب الذى له طرق الوصول إلى علمه وله شواهد ومُقدِّمات كغيبيات العلم المادي التى تكون بسبب الجهل بالأشياء والأمكنة والطرق والمواقع، وتُعلم بالذهاب إلى تلك الأمكنة والسفر والقراءة عنها وغيرها، والتى لا يعرفها مَنْ حُرِمَ الإحاطة بكل شيء، ويعلمها المحيط بكل شيء كما يعلم الغيب المُطلق كذلك.


سورة الغاشية

سورة الغاشية

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية]

الحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان. والحق سبحانه يقول أيضاً: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية]

وفي آية أخرى يقول: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. ۝٤٥ ﴾ [ق]

(جبار) يعني: تجبرهم على أنْ يطيعوا، فالإجبار يتنافى مع التكليف، ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية، ويتنافى مع الاختيار.

لذلك قال أيضاً: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ ﴾ [الأنعام]

والحفيظ هو: الحافظ بمبالغة، تقول مثلاً: هذا حافظُ مال فلان، وهذا حفيظُ مال الناس جميعاً. يعني: عنده مبالغة في الحفظ.

إذن: فالمبالغة جاءت في تكرير الحدث، فهو يحفظ لذلك الإنسان ولغيره. والحق سبحانه يؤكد ذلك لمصلحته ﷺ ؛ لأنه سبحانه بيَّن لنا شغل رسول الله بأمته، وأنه يحب أنْ يكونوا جميعاً مؤمنين ملتزمين مطيعين.

ولذلك يقول الحق: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الشعراء]

إنهم لا يؤمنون، فيوضح له سبحانه: أرح نفسك، فعليك البلاغ فقط وهكذا يُخفّف الله مهمةَ الرسول.

وهناك فرق بين (أرسلناك لهم) أو (أرسلناك إليهم) و (أرسلناك عليهم). فـ (أرسلناك لهم) تعني أنك تُبلّغ فقط، أما (عليهم) فهي تعني لتحملهم على كذا، أي: يجب أنْ تنتبه يا محمد إنّا أرسلناك للناس ـ لا على الناس ـ لتُبلّغهم، فمَنْ شاء فليُطع ومنْ شاء فليعص.

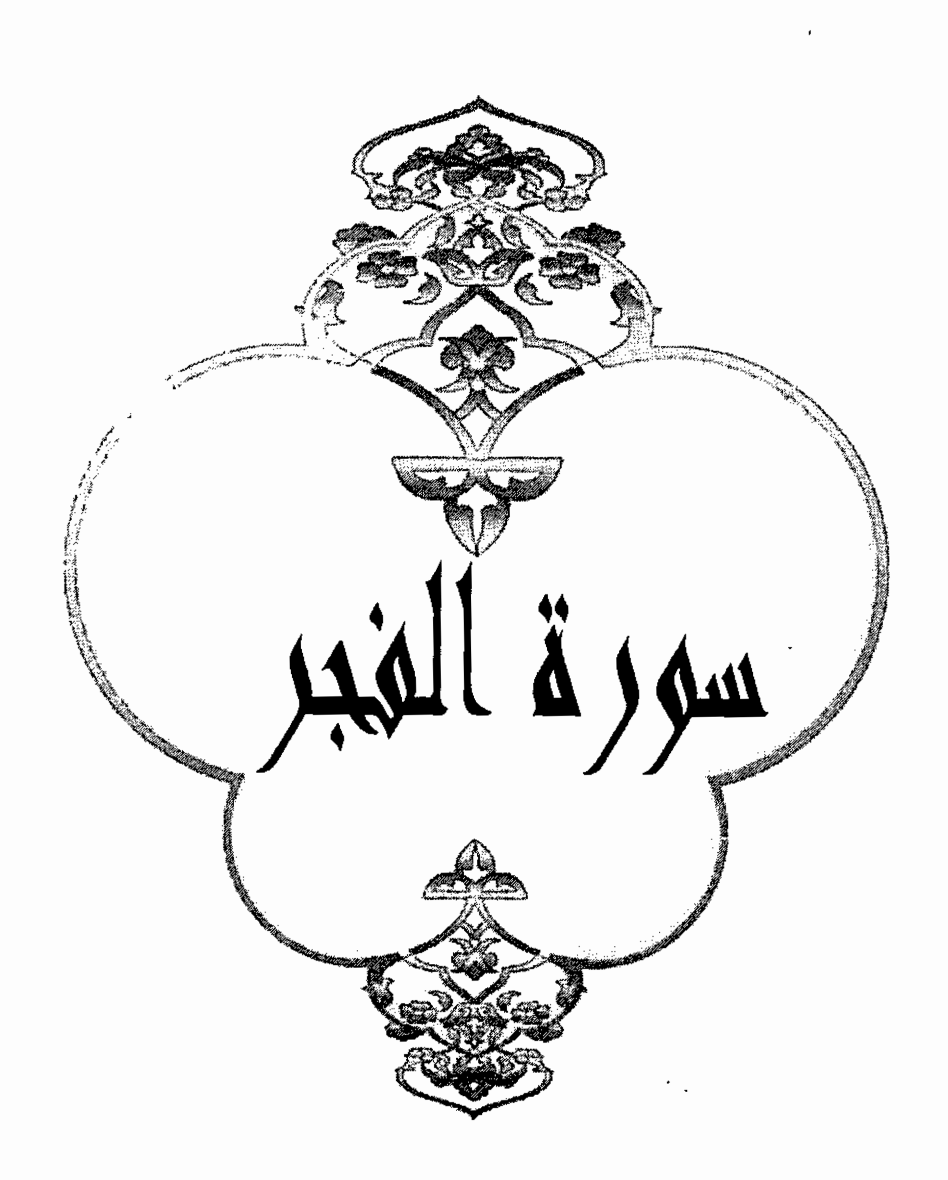
فلا تجهدْ نفسك وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أنْ يؤمنوا فتكلف نفسك أمراً ما كلفك اللهُ به: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ.. ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة]

كأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله ﷺ: ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام]، إنما قاله ليخفف عن الرسول. إذن: الحفيظ هو الذي يحافظ على مَنْ يُبلغه أمر الله، وأنْ يكون سائراً على منهج الله، إنْ أراد أنْ ينحرفَ يعدله.

فيوضح سبحانه: أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم، أنا أرسلتُك لتُبلغهم، وهم أحرارٌ يدخلون في التكليف أو لا يدخلون.

إذن: فالحفيظ هو المُهيمن والمسيطر، كما قال في الآيات الأخرى: والمسيطر أو الجبار هو الذي يحملهم على الإيمان.. والكلام في الطاعة المقصودة لله.

وأنْ تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيما تسمعه أذنك، وما ينطق به لسانك، وليست الطاعة أنْ تقول: يا رسول الله نحن طائعون، وبعد ذلك تحاول أنْ تخدشَ هذه الطاعة بأنْ تجعلها طاعةَ لسان وليستْ طاعةَ جوارح. فطاعةُ اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان.


سورة الفجر

سورة الفجر

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ ﴾ [الفجر]

اللهُ سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا في عهد عاد وعهد ثمود، فالله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود.

وهذا دليلٌ على أن حضارة عاد وثمود قديمة، والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التي لم يُخلَقْ مثلها في البلاد. أي: أنها حضارةٌ أرقى من حضارة قدماء المصريين.

قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التي لم يخلُق مثلها في البلاد، مع أنه يوجد الآن حضاراتٌ متقدمة كثيرة.

نقول: إن الله قد كشفَ لنا حضارة الفراعنة وآثارهم، ولكنه أخفى عنا حضارة عاد، ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياءَ

لم نصلْ إليها حتى الآن، مثل براعتهم في تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث، وبناء الأهرامات وغير ذلك.

وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة. فإنها تكون قد وصلت وصلتْ إلى أسرار ما زالتْ خافية على العالم حتى الآن، ولكنّا لا نعرف شيئاً عنها، لأن الله لم يكشف لنا آثارها.

ولقد تحدّث الحقُّ تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون، وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون، ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يُسم ملك مصر فرعون، إنما سماه العزيز الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك. وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ.. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

إذن: فالحاكم أيام يوسف كان يُسمّى ملكاً، ولم يُسمّ فرعون. بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يُلقّبون بفرعون، ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوسُ أهل بني إسرائيل.

فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة، وحكموا مصر سنوات حتى تجمّع الفراعنةُ وطردوهم منها.

والغريب أن هذه القصة لم تُعرفْ إلا بعد اكتشاف حجر رشيد، وفكّ رموز اللغة الهيروغليفية، وكان ملوكُ الهكسوس من الرُّعاة الذين استعمروا مصر.

وعندما جاء موسى كان الفراعنةُ قد عادوا لحكم مصر، فإذا كان هذا الأمرُ لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس، وذلك عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد، ولكن القرآن أرّخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرناً.

وهذه معجزةٌ تنضم لمعجزات كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولاً وقت نزول القرآن وأصبح معلوماً الآن، لنجد أن القرآنَ جاء به في وضعه الصحيح والسليم.

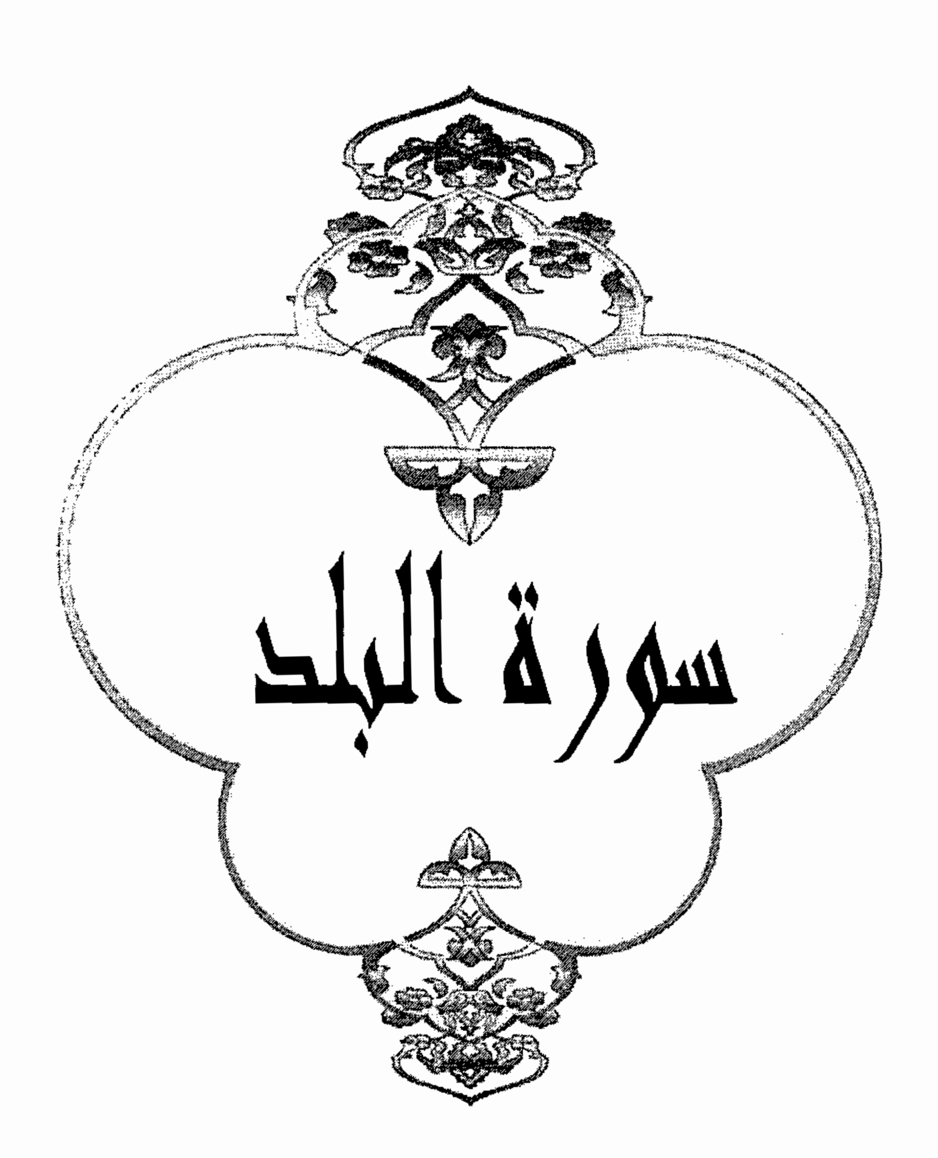
إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد أي متفوقة على حضارة مصر القديمة، وهي عجيبةٌ وفيها أكثرُ من عجيبة فأين هي الآن؟

وما دامت الرمالُ بعاصفة واحدة تطمر قافلة، فكم عاصفة مرَّتْ على هذه البلاد؟ ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أنْ ننقب عن الآثار فلا بدّ أنْ نحفر تحت الأرض. لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض؟ لقد غطتْها العواصف الرملية.

والمثال على ذلك: أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ، فماذا تجد من حجم التراب لو غبتَ عن بيتك عاماً، أو عامين، أو ثلاثة أعوام، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه؟ ولكن التراب الناعم يتسرّب ويُغطي الأثاث والأرض.

وإذا كانت هذه الأمورُ تحدث في منازلنا، فما بالك بالمنطقة التي فيها أعاصير وعواصف رملية؟ هل تطمر المدنَ أم لا؟

إن المدن والحضارات تُطمر تحت الرمال، لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر في الأرض، وهذا لونٌ من السير في الأرض للرُّؤية والعظة.


سورة البلد

سورة البلد

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾ [البلد]

كلمة (رقبة) تُطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق، وليس على العنق نفسه، وتُطلق كلمة الرقبة على الذات كلها، أي الإنسان في حَدِّ ذاته، لماذا؟ لأن حياة الإنسان يمكن أنْ تملكها من الرقبة، فتستطيع أنْ تمسكَ إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضَغطاً تمنع تنفسه إلى أنْ يموتَ، لذلك تُطلق الرقبة ويُراد بها الشخص ذاته.

ففك الرقبة أي: فكّ الأسير. وفك أسْر العبد، ويمكن لصاحب البر أنْ يشتريَ العبيد ويعتقهم، أو يُسهم في فكِّ رقابهم، فذلك لونٌ من ألوان تصفية الرق، وفي تصفية الرق هناك شيءٌ اسمه التدبير، وشيءٌ اسمه المكاتبة.

هَبْ أن عبداً يخدمك، وبعد ذلك ترى أنه أخلصَ في خدمتك، فثمناً لإخلاصه في خدمتك مدة طويلة قررت أنْ تُدبّره بعد موتك، أي: تعطيه حريته فيصبح حُراً بعد موتك، فكأنك علقتَ عبوديته على مدى حياتك، وبعد انتهاء حياتك يصبح مُدبراً أي حراً، ولا يدخل في تركتك، ولا يُورَث.

وقد تكاتبه على مال فتقول له: يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه، وأطلق حركتك لتتصرف أنت، وتضرب في الحياة وتكسب وتأتي لي

بالمائة جنيه، ثم أطلق سراحك، وفي هذه الحالة فإن على أهل البر أنْ يعاونوا هذا المكاتب ليؤدي مال الكتابة حتى يفكّ رقبته من الأسْر.

وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممّنْ أخذه، بحيث يكون في قبضة يده، والأسير في الإسلام هو نبع العبودية والرق، لأن الأسير يقع في قبضة عدوه الأقوى منه ويمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن: ففي هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة، وأيهما أنفع للأسير أنْ يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يُقتل؟

إن بقاءه على قيد الحياة أمرٌ مطلوبٌ منه ومرغوبٌ فيه، وبذلك يكون تشريعُ الله سبحانه وتعالى في تملك الأسرى إنما أراد اللهُ به أنْ يحقنَ دماءهم ويُبقي حياتهم، لأن الأسير مقدورٌ عليه بالقتل، وكان من الممكن أنْ يتركَ الأسرى ليقتلوا وتنتهي المشكلة.

لكن الحق سبحانه أراد أنْ يحفظ حتى دم الكافر، لأن الله هو الذي استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة، ولذلك يحفظه، ولعله من بعد ذلك أنْ يهتديَ ويؤمن. ونعلم أن النبي ﷺ قد لعن منْ يهدم بنيان الله إلا بحقه.

على أن الإسلام قد اتُّهمَ زُوراً بأنه هو الذي شرع الرقَّ، ولكن الحقيقةَ أنه لم يبتدع أو ينشيء الأسْر والرّق، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام، وكانت منابعُ الرقِّ متعددة بحقٍّ أو بباطل، بحرب أو بغير حرب.

فقد يرتكب أحدٌ جنايةً في حقِّ الآخر ولا يقدر أنْ يُعوِّضه فيقول: خُذني عبداً لك، أو: خذ ابنتي جارية، وآخر قد يكون مَديناً فيقول: خُذْ ابني عبداً لك أو ابنتي جارية لك.

وكانت مصادر الرق متعددة، ولم يكُنْ للعتق إلا مصرفٌ واحد، وهو إرادةُ السيد أنْ يعتق عبده أو يُحرره.

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص، لأن مصادره متعددة وليس هناك إلا بابٌ واحد للخروج منه، وعندما جاء الإسلام ووجد الحالَ هكذا أراد أنْ يعالج مشكلةَ الرق ويعمل على تصفيته.

ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثلَ هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة، فألغي الإسلامُ كلَّ مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التي يعلنها الإمامُ أو الحاكم.

وكلُّ رقٍّ من غير الحرب المشروعة حرامٌ، ولا يجوز الاسترقاقُ من غير طريقها، وفي ذات الوقت عدَّدَ الإسلامُ أبوابَ عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوبِ كثيرة لا يُكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة.

بل إنه زاد على ذلك في الثواب الكبير الذي يناله منْ يعتق رقبة حباً في الله وإيماناً به، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾ [البلد]

فإذا لم يرتكب الإنسانُ ذنباً يُوجب عتقَ رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه في هذه الحالة عليه أنْ يعامل الأسير معاملة الأخ له في الإسلام.

فيقول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه سيدنا أبو ذَر ﷺ: ((إخوانكم خَوَلُكُم، جعلهم اللهُ فتنة تحت أيديكم، فمَنْ كان أخوه تحت يده فليُطعمْه من طعامه، وليُلبسه من لباسه، ولا يُكلفه ما يغلبه، فإنْ كلّفه ما يغلبه فليُعنْهُ)).

إذن: فقد ساوى هذا الحديثُ الشريف بين العبد والسيد، وألغي التمييز بينهما، فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده، ويأكل مما يأكل أو يأكل معه، وفي العمل يُعينه، ويجعل يده بيده، ولا يناديه إلا بـ (يا فتاي) أو (يا فتاتي).

إذن: فالإسلام قد جاء والرقُّ موجود وأبوابه كثيرةٌ متعددة ومصرفه واحد، فأقفل الأبوابَ كلها إلا باباً واحداً، وفتح مصارفَ الرقِّ حتى تتم تصفيتُه تماماً بالتدريج.

وبالنسبة للنساء جاء التشريعُ السَّماوي في قول الله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ [النساء]

وكان ذلك باباً جديداً من أبواب تصفية الرقِّ، لأن الأَمَةَ إنْ تزوَّجتْ عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد، فإنْ أخذها الرجلُ إلى متاعه وأصبحتْ أم ولده يكون أولادها أحراراً.

وبذلك واصل الإسلامُ تصفية الرق، وفي ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسي الذي يمكن أنْ يجعلها تتحرف وهي بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها، وترى حولها زوجات يتمتعنَ برعاية وحنان ومحبة الأزواج.

وهذه مسألة تحرك فيها العواطف، فأباح للرجل إنْ راقتْ عواطفهما لبعضهما أنْ يعاشرها كامرأته الحرة، وأنْ ينجبَ منها وهي أمَة، وفي ذلك رَفعٌ لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة، وفي ذات الوقت تصفيةٌ للرقِّ.

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام، وقيل فيها كلامٌ كله كذبٌ وافتراء، والآن بعد أنْ ألغي الرق سياسياً بمعاهدات دولية انتهتْ إلى ذات المبادئ التي جاء بها الإسلام وهي تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل.

وهو مبدأ أول ما جاء، إنما جاء به الإسلام، فليس من المعقول أنْ يأخذ عدو لي أولادي يُسخرهم عنده لمَا يريد، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندي، ولكن المعاملةَ بالمثل فإنْ منّوا نَمُنّ، وإنْ فدوا نفد.

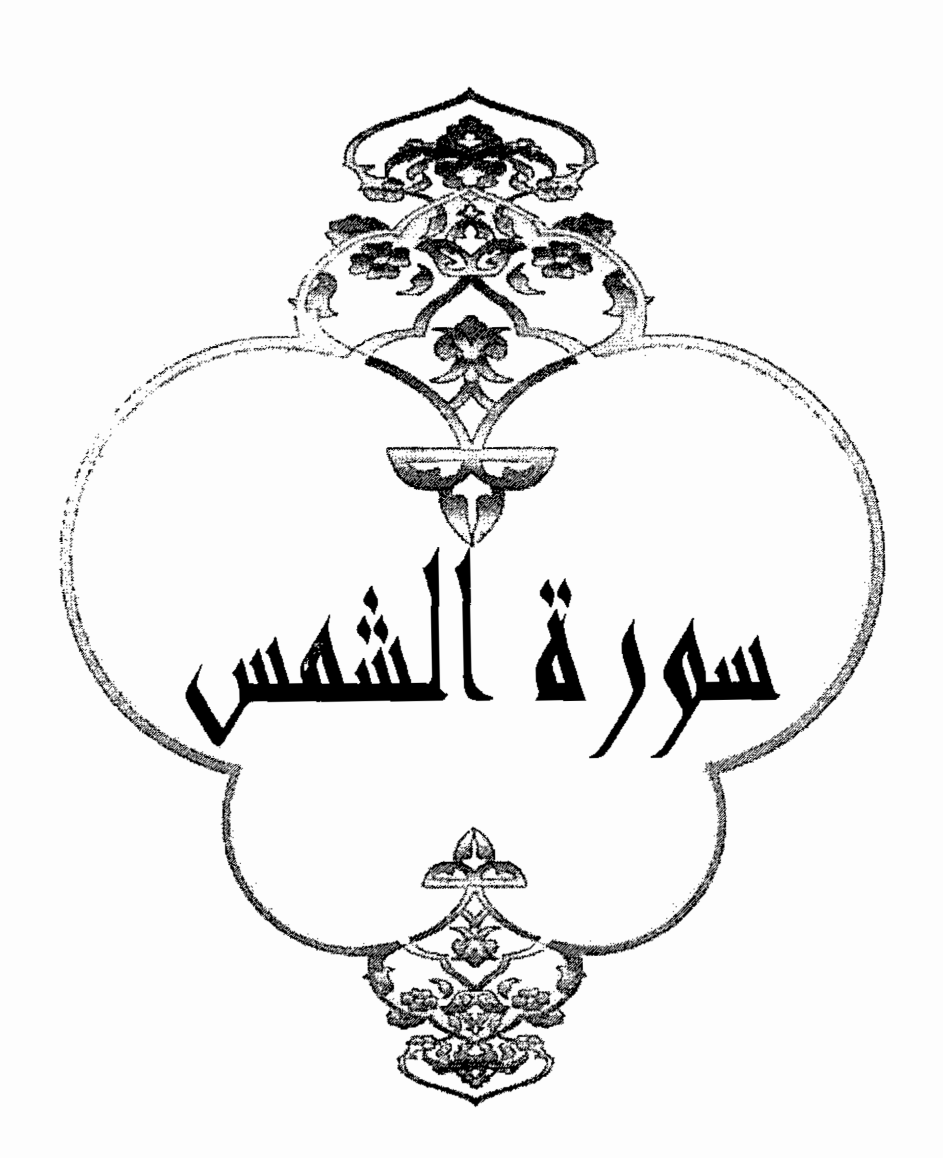
ويشاء الحق سبحانه وتعالى أنْ يجعل الرقَّ الناشيء عن الأسر مُقيداً في قَوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال]

ونقول: إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله ﷺ، وحكم يجيء مع الحدث، ولا بد أنْ نُفرّق بين الحكمين، حكم يسبق الحدث إنْ خُولف تكون هناك مخالفة ولكنّ

حكماً يأتي مع الحدث فهذا أمرٌ مختلف، لنفرض أنـك جـالسٌ وجـاء لك مَنْ يقول إن قريبك فلاناً ذهب إلى المكـان الفلانـي، وأنـه ينفـق على كذا، وأعطي كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا.

اذهب إليه لتمنعه، فتذهب إليه وتمنعـه، هنـا جـاء الحكـمُ مـع الحدث، فلا تكون هناك مخالفة.

وسبحانه العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم الذي يضـع كـلَّ شـيء في موضعه.


سورة الشمس

سورة الشمس

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]

كلمة النفس إذا وردتْ في القرآن الكريم، فافهم أن لها علاقة بالروح. حينما تتصل الروحُ بالمادة وتعطيها الحياة تُوجد النفس، المادة وحدها قبل أنْ تتصل بها الروحُ تكون مقهورة ومُنقادة مُسبحة لله، فلا تقلْ الحياة الروحية والحياة المادية، لأن الروح مُسبّحة والمادة مُسبحة.

ولكن عندما تلتقي الروحُ بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل، والموت يترتب عليه خروجُ الروح من الجسد، الروحُ تذهب إلى عالمها التسخيري، والمادة تذهب إلى عالمها التسخيري.

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية، لأن الحياةَ الروحية تختلف عن الروح التي في جسدك، وهي تنطبق على الملائكة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتي بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو القائل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة (الفلاح) وهي مأخوذة من الأمر الحسيّ المتصل بحياة الكائن الحي، فمُقوّمات وجود الكائن الحي: نَفَس، وماء، وطعام، والتنفس يأتي من الهواء الذي يحيط بالأرض، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب في باطن الأرض، والطعام يأتي من الأرض، وكلٌّ ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

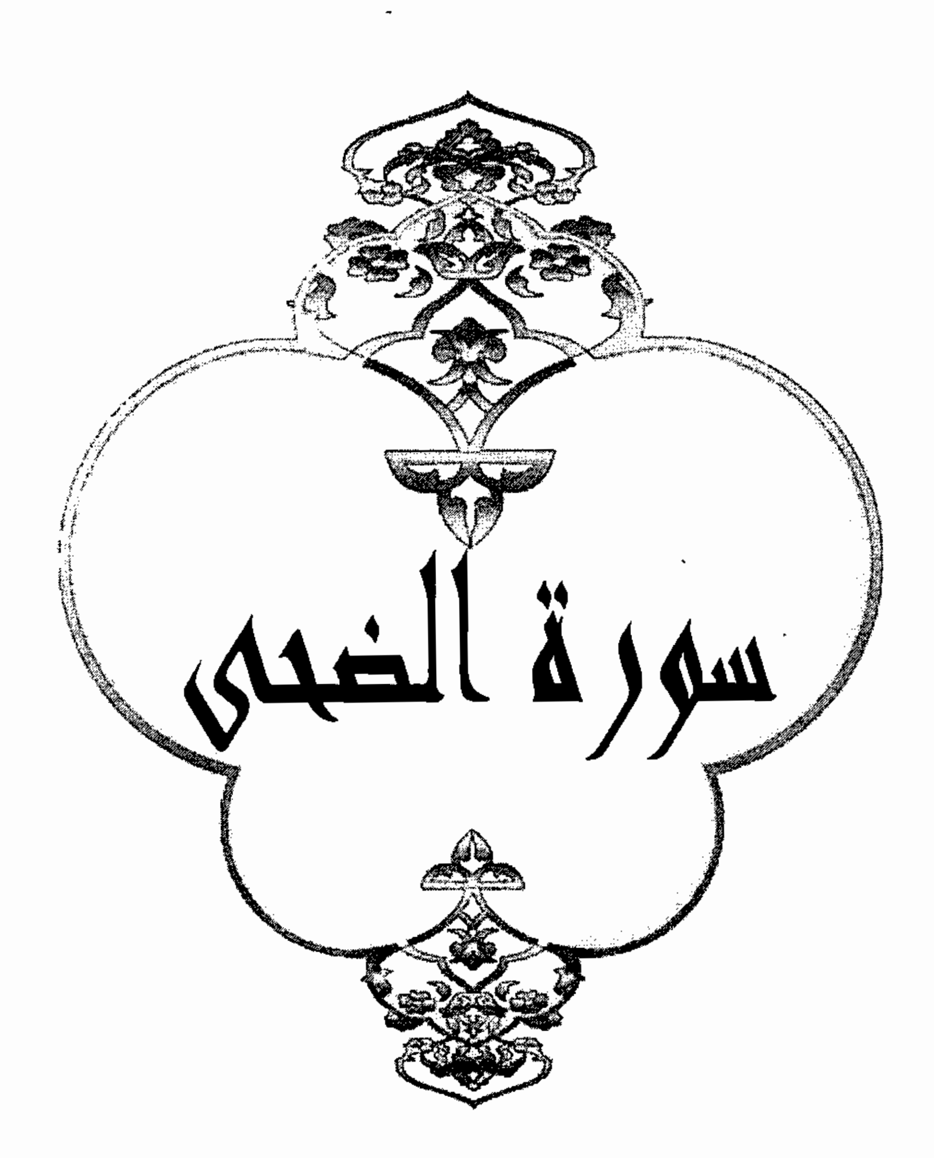
لذلك نقول: إن الفلاَحة هي السبب الاستبقائي للحياة، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض، ويشقّها ويبذر فيها البذور، ثم يرويها، ثم تنضج وتخرج الثمرة، ويقال: أفلح. أي: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحقُّ سبحانه أن يُسمّي الحصيلةَ الإيمانية الطيبة بالفلاح، وبيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ أن الدنيا مزرعةُ الآخرة، فإنْ كنتَ تريد ثمرة فابذل الجهد.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس]

يعني: نمَّى ملَكةَ الخير فيها ورقَّاها وصعَّدها بأنْ ينظرَ إلى العمل إنْ كان سينقص منك في الظاهر، إلا أنه سيجلب لك الخيرَ فيما بعد، فترتقي بذلك ملكَاتُ الخير في نفسك.

إن على كل منا أن يحفظ إشراقات الإيمان والطاعة فى نفسه بأن يُغذيها بالحلال، ويُعوِّدها الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان.


سورة الضحى

سورة الضحى

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى]

الضُحى محلُّ الحركة والكدح، والليلُ محلُّ السكون، ولا بدَّ أنْ يُوجدَ الاثنان معاً.

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء، والضُحى هو ضَحْوة النهار، وهي محل الحركة والكدح والجهد والتعب، والليل محلُّ الراحة والسكون.

والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف، فالليل يأتي والنهار خلفه، لأن النهارَ جعله الله ضياء للحركة والكدح والعمل، وجعل سبحانه الليلَ ظلاماً للسكون والراحة، فإنْ لم ترتحْ بالليل فلا تقوى على العمل في الصباح، وهكذا يكون الليلُ مُكملاً للنهار لا مناقضاً له.

وكذلك شاء الحق أن يكونَ الوحيُ بهذا الشكل، فحين جاء الوحيُ لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ، ثم فتر الوحيُ ليستريح ﷺ وتتجدد قدرته على استقبال الوحي من بعد ذلك.

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه. ردّ عليهم الحقُّ سبحانه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى]

والضحى ضَحوة النهار وهي – كما قلنا – للعمل والحركة، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضدُّ النهار، لكنه غيرُ ذلك، بل هو مُكمل له ويساعده.

إذن: ففتور الوحي لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله لتجديد الحيوية.

وأقسم الحق سبحانه بالضحى والليل وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتي يعترف بها كلٌ إنسان، مؤمنهم، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله، بل شاء بفتور الوحي أنْ يعطيه طاقة تزيد من حركته، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحي، وبذلك أعانه الحق على مهمته، وفي هذا أبلغُ ردٍّ على منْ قالوا: إن ربَّ محمد قد قلاه، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحي أنْ تكونَ كالليل سُكوناً، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المُجهد الذي استقبل به الوحي.

وبعد أنْ تتجدد حيويته ﷺ يأتي الوحي من جديد ؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ [الضحى]

وهكذا بيَّن لنا الحقُّ سبحانه أن مسألة فُتور الوحي وعودته هي عملية متكاملة، لكن الأغبياءَ فقط هم منْ يظنون أنها متناقضة، ويقولون: (ظلمة – وضوْء)، و(ليلٌ – ونهارٌ) والحقُّ أنها متكاملة.

كأن الحق يوضح: إنكم إنْ نظرتم في آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضُّحى للكدح والليل لنسكنَ فيه، وفتور الوحي هو سُكون ليعاود محمدٌ نشاطه في حركة الوحي الجديدة.

الحق سبحانه يقسم: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] وقد يسأل سائل: فمجيءُ الليل بعد النهار ضَنٌّ من الله على الناس بالنهار؟ لا، إنما الليلُ عطاءٌ من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد.


سورة الشرح

سورة الشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

[الشرح]

إنه خَبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقي. وقد يقول قائلٌ: ولماذا لم يقُلْ الحق سبحانه: أشرحنا لك صدرك؟ كان من الممكن ذلك، ولكن الحق سبحانه لم يَقلها حتى لا يكونَ في السؤال إيحاءٌ بجواب الإثبات، بل جاءت بالنفي.

وشرح اللهُ صدرَ رسوله، فصار هذا الصدرُ مهبطَ الأسرار والعلم وحطَّ عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال، وارتبط اسم الرسول ﷺ بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسمُ رسول الله مقروناً باسمه جلَّ شأنه في الشهادة الأولى للإسلام (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله).

إذن: كان هذا حالَ رسول الله حين تجلَّى له المَلَكُ لا بالحقيقة الملكية، ذلك أن هناك فارقاً بين البنيان البشري والبنيان الملكي، فالبنيانُ البشري يستقبل الأشياء المادية التي تناسب تكوينه، فإن جاءتْ له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أنْ يستقبلها إلا إذا أعدَّ اللهُ المَلَك وصوَّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال، وأعد اللهُ الرسولَ ليكون قابلاً للاستقبال.

الصحابة يصفون حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه فيقولون: كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً، ويبلغ منه

الجهد مبلغاً، وإنْ نزل الوحيُ وهو على دابة كانت تتخ برسول الله، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِى عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل]

إذن: هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحي، لأن الوَحْي من ملَك له طبيعته التكوينية التي تختلف وطبيعة النبي البشرية، فلكي يتم اللقاءُ بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب في الطبيعة، فإمّا أنْ يتحول الملَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية، أو ينتقل رسولُ الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقّى عن الملك.

لذلك، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية في طبيعته، هذه التغييرات هي التي تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول: زملوني زملوني. أو: دثروني دثروني. لمَا حدث في تكوينه من تفاعل.

فكان الوحي شاقاً على رسول الله خاصة في أوله، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة، وأنْ يُريحه فترةً من نزول الوحي ليريحه من ناحية، وليُشوِّقه للوحي من ناحية أخرى.

فقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝ ﴾ [الشرح]

والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذي كان يحمله رسول الله في نزول الوحي عليه، فلما فتر الوحيُ عن رسول الله شمتَ به الأعداءُ، وقالوا: إن ربَّ محمد قد قلاه.. سبحان الله، أفي الجَفْوة تذكرون أن لمحمد رباً؟ ألستُم القائلين له: كذاب وساحر؟ والآن أصبح له ربٌّ لأنه قَلاه؟

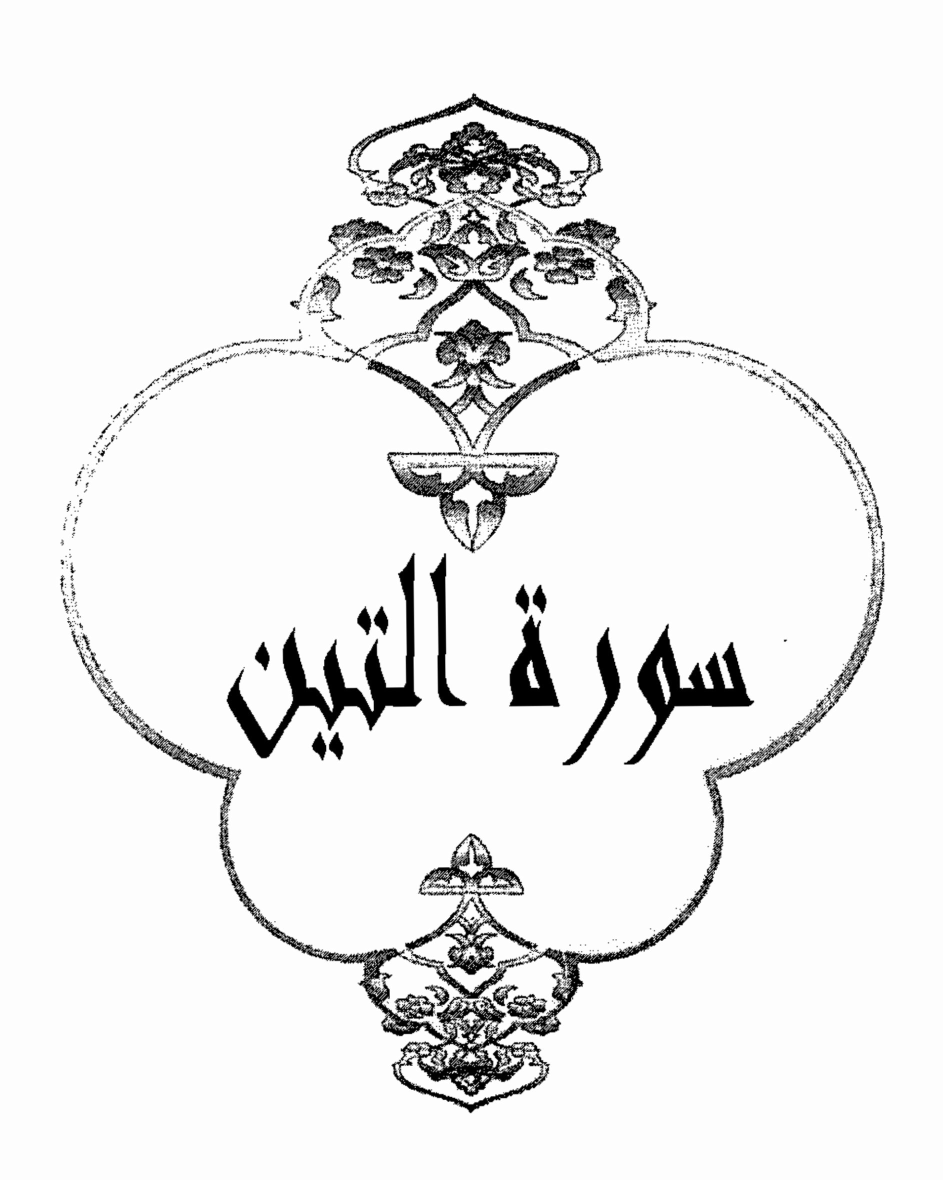
وما فهم الكفار أن فتور الوحي لحكمة عالية، أرادها ربُّ محمد، هي أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية في تكوينه، وأنْ تتجدد طاقته، ويزداد شوقُه للقاء جبريل من جديد، والشَّوْق إلى الشيء يُهوِّن الصعاب في سبيله، كما يسير المُحبّ إلى حبيبه، لا تمنعه مشاقّ الطريق.

فردَّ الحق سبحانه على الكافر:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾ [الضحى]

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار، ثم عدَّل عبارتهم: إن ربَّ محمد قد قلاه فقال: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] هكذا بكاف الخطاب، لأن التوديع قد يكون للحبيب.

أمَّا في قوله: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] فلم يأْتِ هنا بكاف الخطاب حتى مع النفي، فلم يقُلْ: وما قلاك. لأن النفي مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله.


سورة التين

سورة التين

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين]

تُطلق الحكمة في الأصل على قطعة الحديد التي تُوضع في فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أنْ يتحكمَ فيه، ذلك أن الحصانَ حيوانٌ مدلل شارد يحتاج إلى ترويض.

وقطعة الحديد التي تُوضع في فمه تجعله أكثرَ طاعة لصاحبه، وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى،ودون دراية.

والحكمة أنْ يُوضع هدفٌ لكل حركة لتنسجم الحركاتُ بعضها مع بعض، ويصير الكونُ محكوماً بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والحكيم العليم: هو الذي يضع لكل كائن إطاره وحدوده.

والحكمة هي أنْ يؤدي كلُّ شيء ما هو مطلوب منه ببراعة. والحكمة في الفقه هي أنْ تستنبطَ الحكم السليم. والحكمة في الشعر أنْ تزنَ الكلمات على المفاعيل. والحكمة في الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذي يعالجه.

والحكمة في الهندسة أن تُصمم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك، أو في تصميم المنزل للسكن المريح. وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل.

والكون كله مخلوقٌ من قبَل حكيم عليم، وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شيء في موضعه ليؤدي مهمته. ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أنْ يكون عليماً، لأن علمه هو الذي يجعله يصنع كلَّ شيء بحكمة.

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته، فليس من طبيعة الملائكة أنْ يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الإنسانُ الذي سيستخلفه الله في الأرض، ولكنهم موجودون لمهمة أخرى.

وميّزَ اللهُ الإنسانَ بالعقل ليستكشفَ من آيات الله في الكون على قدر حاجة حياته. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

إذن: فكلُّ شيء خُلقَ بقدر، وكلُّ مخلوق مُيسَّر لما هداه اللهُ له.

الحكيم: الذي لا يصدر منه الشيءُ إلا بحكمة بالغة.

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته، ولكن هذه عظمة القرآن الكريم، لأن السؤال عن العلة أولاً معناه أن الأمرَ صادرٌ من مُساوٍ لك.. فإذا قال لك إنسانٌ: افعل كذا.. تسأله: لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه؟

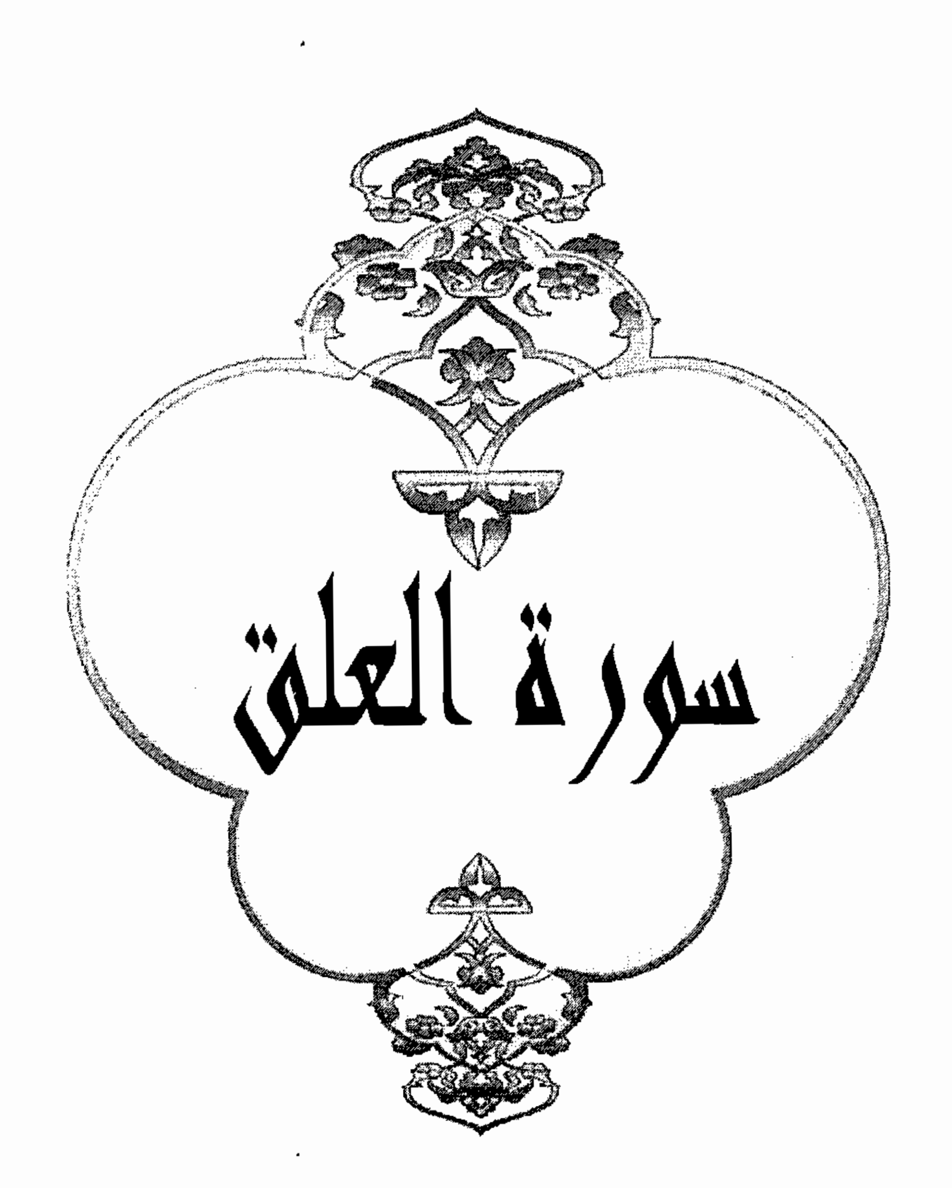
إذن: الأمر من المُساوي هو الذي تسأل عن علته، ولكن الأمرَ من غير المساوي، كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده، مثل هذا الأمر لا يُسأل عن علته قبل تنفيذه، لأن الذي أصدره أحكمُ من الذي صدر إليه الأمر.

ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولاً.. فيكون قد فعل الأمر بعلته، فكأنه قد فعله من أجل العلة، ومن هنا يزول

الإيمان، ويستوي أنْ يكونَ الإنسان مؤمناً أو غيرَ مؤمن، ويكون تنفيذُ الأمر بلا ثواب من الله.

إن الإيمانَ يجعل المؤمنَ يتلقَّى الأمرَ من الله طائعاً.. عرف علتـــه أو لم يعرف.. ويقوم بتنفيذه لأنه صادرٌ من الله، ولذلك فإن تنفيـــذ أيِّ أمـــر إيماني يتم لأن الأمر صادرٌ من الله، وكل تكليف يأتي علة حدوثـــه هـــي الإيمان بالله.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كلَّ تكليف بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾.. أي: يا منْ آمنتَ بالله رباً وإلهاً وخالقاً.. خُذ عن الله وافعل لأنك آمنتَ بمنْ أمرك.


سورة العلق

سورة العلق

﴿ كَلا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

[العلق]

إذا نظر الإنسانُ حوله فوجد كلَّ ما في الكون مُسخّراً لخدمته والأشياء تستجيب له، فظنَّ بمرور الزمن أن له سيطرة على هذا الكون، ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الأسباب، يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد أعطته واستجابت له، ولم يلتفت إلى خالق الأسباب الذي خلق لها قوانينها، فجعلها تستجيب للإنسان.

وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله جلَّ جلاله: ﴿ كَلا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر، فيعتقد أنه هو الذي أخضع الأرض ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد، يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد أنه هو الذي أوجد هذه الكهرباء!

يركب الطائرة وتسير به في الجو فيعتقد أنه هو الذي جعلها تطير، وينسى الخصائص التي وضعها اللهُ سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع أنْ يحملَ هذه الطائرة.

يفتح التليفزيون ويرى أمامه أحداث العالم فيعتقد أن ذلك قد حدث بقدرته هو، وينسى أن الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائصَ جعلته ينقل الصوتَ والصورة من أقصى الدنيا إلى أقصاها في ثوان معدودة.

وهكذا كل ما حولنا يظن الإنسانُ أنه أخضعه بذاته، بينما كلٌّ هذا مُسخّر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان، وهو الذي خلق ووضع

القوانين· نقول له: إنك لو فهمتَ معنى ذاتية الأشياء ما حدثتكَ نفسك بذلك، الشيءُ الذاتي هو ما كان بذاتك لا يتغير ولا يتخلف أبداً·· إنما الأمر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير·

وإذا نظرتَ إلى ذاتيتك تلك التي أغرتك وأطغتك، ستفهم أن كلمة ذاتية هي ألا تكون محتاجاً إلى غيرك بل كل شيء من نفسك، وأنت في حياتك كلها ليس لك ذاتية، لأن كلّ شيء حولك متغيرٌ بدون إرادتك، وأنت طفل محتاج إلى أبيك في بدء حياتك، فإذا كبرتَ وأصبح لك قوة واستجابتْ الأحداث لك فإنك لا تستطيع أن تجعلَ فترة الشباب والفتوة هذه تبقى·

فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة، فإذا وصلتَ إلى مرحلة الشيخوخة فستحتاج إلى منْ يأخذ بيدك ويُعينك، ربما على أدق حاجاتك وهي الطعام والشراب·

إذن: فأنت تبدأ بالطفولة محتاجاً إلى غيرك، وتنتهي بالشيخوخة محتاجاً إلى غيرك، وحتى عندما تكون في شبابك قد يُصيبك مرضٌ يقعدك عن الحركة، فإذا كانت لك ذاتٌ حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقُلْ: لن أمرض·· إنك لا تستطيع·

والله سبحانه وتعالى أوجد هذه المتغيرات حتى ينتهيَ الغرور من الإنسان نفسه·· ويعرف أنه قوي قادر بما أخضع الله له من قوانين الكون·

لنعلم أننا جميعاً محتاجون إلى القادر، وهو الله سبحانه وتعالى، وأن الله غنيٌّ بذاته عن كل خلقه·· يُغير ولا يتغير·· يُميت وهو دائم الوجود·· يجعل من بعد قوة ضعفاً وهو القويُّ دائماً·· ما عند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً·· هو الله في السماوات والأرض·


سورة القدر

سورة القدر

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾ [القدر]

حكمةُ الله اقتضتْ أن تدورَ مواقيتُ العبادات على سائر أيام السنة، حتى يستطيع كلُّ الناس حسب ظروفهم المناخية أنْ يُؤدوا العبادات بلا مشقة. وهذا سببُ قول بعض العلماء: إن ليلة القدر تمر دائرة في كل ليالي السنة، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج.

فإبهام الشيء إنما جاء لإشاعة بيانه، ولذلك أبهم اللهُ ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه، فبدل أنْ تكونَ ليلة قدر واحدة أصبحتْ ليال أقدار.

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنتُ أستاذاً في كلية الشريعة ومعي بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكي غيث – رحمه الله وغفر الله له – ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخُ علماء المملكة في هذا الوقت السيد إسحق عزوز، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذي نقيم فيه، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم.

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية العدد سبعة في القرآن الكريم، وكان يقرأ في تفسير القرطبي فوجد فيه: قال عمر بن الخطاب لابن

عباس: يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر؟ فقال ابن عباس: أغلبُ الظن أنها ليلة السابع والعشرين.

فلما سمعنا هذا الكلام قلنا: هذه سبعة، وهذه سبع وعشرون.

فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو علي أن نذهب لنصلي في الحرم بدل أنْ نصلي في الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ، وقد كان كلما حزبه أمرٌ يقوم إلى الصلاة، وقلنا: ربما يفتح اللهُ علينا في هذه المسألة.

وبعد أنْ صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مُهتم بنفسه، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول، ثم شاركنا الكلام وقال: ألم يقُل رسول الله ﷺ: ((التمسوها في العشر الأواخر من رمضان))

إذن: فدعكم من العشرين يوماً، واحسبوا في العشر الأواخر، ثم نظرنا فلم نجده، كأن وحدةَ الزمن التي تُوجد بها ليلة القدر هي هذه العشر، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ **[يوسف]**

أطَال الله في عمر مَنْ بقي من هؤلاء، وغفر الله لمنْ ذهب.


سورة البينة

سورة البينـة

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ ﴾

[البينـة]

الحق سبحانه لا يرسل أيَّ رسول إلا ومعه بينة ودليلٌ صدق على أنه رسولٌ يُبلِّغ عن الله تعالى.

والبينة لا بد أنْ تكون من جنس نبوغ القوم، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألفوه، حتى لا يقولوا: لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء.

وقد جاء القرآنُ ليثبتَ عجزهم عمَّا نبغوا فيه من صناعة الكلام.. شعراً ونثراً وخطابة. وكان القرآنُ هو معجزة رسول الله ﷺ في قوم فُصحاء يعقدون للشعر أسواقاً، ويُعلِّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرةً له وشهادةً به.

إذن: فهم أصحابُ دراية بصناعة الكلام، وجاءتْ المعجزةُ مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه لتتحداهم.

والتحدي يستدعي استجماع قوة الخصم، ليرد على هذا المتحدي، فإذا عجز مع التحدي، يصير العجز مُلزماً.

وقد تحدى الحقُّ سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أنْ يأتوا بمثله، فتدرّج القرآنُ معهم في التحدي فطلب منهم ما هو أقلّ من ذلك، وهو أنْ يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن.

وعند التأمل نجد أن الأسلوبَ الذي جاء بطلب سورة كان على لونين، فمرة يقول: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ.. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

ومرة يقول: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ.. ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

وكلٌّ من اللونين بليغٌ في موضعه فـ ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ تبين أن المثليةَ هنا مُحققة، أي: مثل ما جاء من سُور القرآن. وقوله: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ.. ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

أي: سورة من مثل محمد ﷺ في أنه لم يجلس إلى معلِّم، ولم يقرأ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة في أيِّ فترة من مراحل حياته قبل الرسالة.

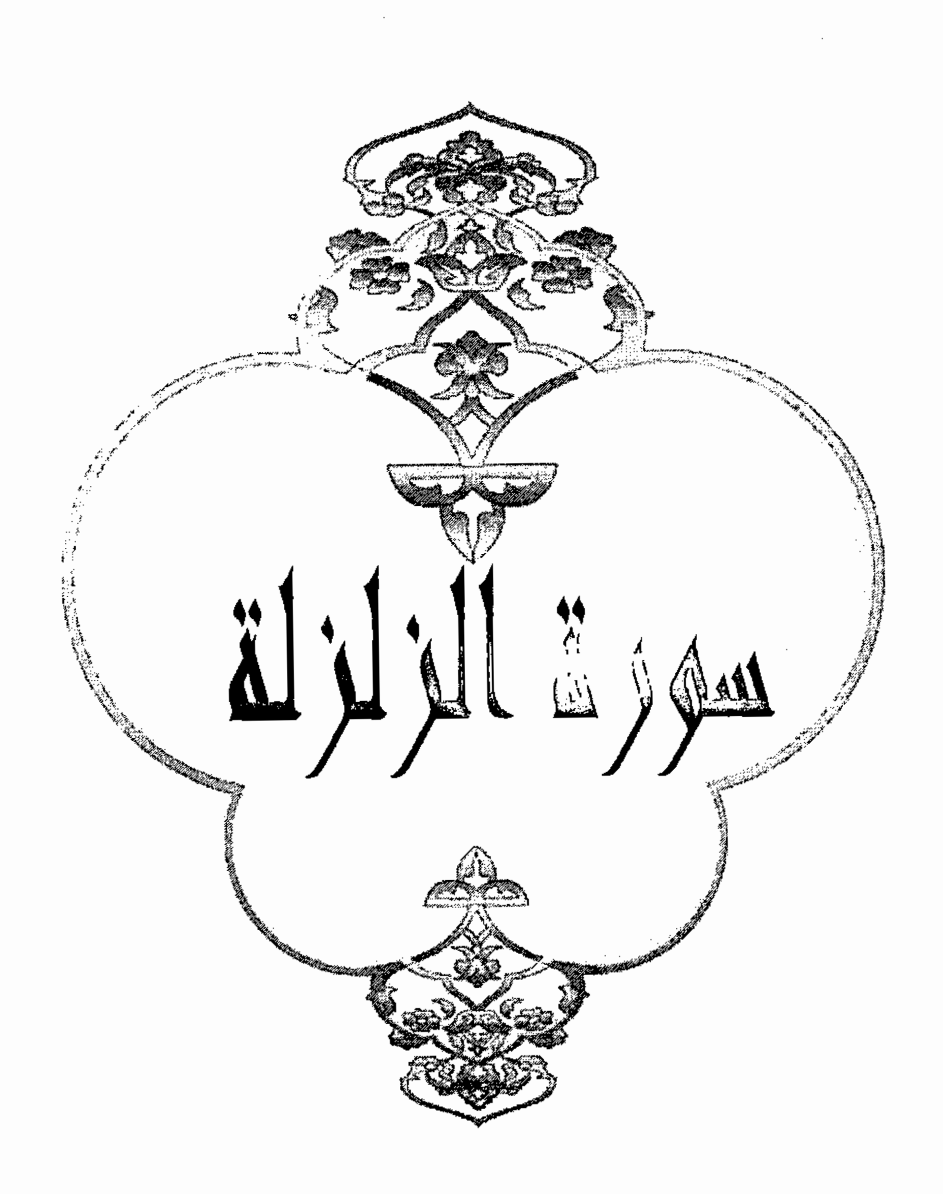
وقال الحق سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

إذن: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

أي: مثل محمد ﷺ الذي لم يتعلم وكان أمياً، ولكن لماذا يأتي هذا اللون من التحدي؟

لأنهم قالوا عن القرآن: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: 5].

بل واتهموه في قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذي قالوا إنه معلم للرسول ﷺ كان أعجمياً غير عربي، يقول الحق سبحانه: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]


سورة الزلزلة

سورة الزلزلة

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]

عندما تسمع كلمة (زلزلة) فأنت تكتشف خاصية فريدة في اللغة العربية، هذه الخاصية هي تعبيرُ الصوت عن واقعية الحركة، فكلمتا: (زُلزلتْ) و (زلزلة) أصلهما (زلزل) وهذه الكلمة لها مقطعان هما (زل، زل).

و (زل): أي سقط عن مكانه، أو وقع من مكانه، والثانية لها المعنى نفسه أيضاً، أي وقع من مكانه، فالكلمة تعطينا معنى الوقوع المتكرر: وقوع أول، ووقوع ثانٍ.

والوقوع الثاني ليس امتداداً للوقوع الأول، ولكنه في اتجاه معاكس، فلو كانت في اتجاه واحد لجاءتْ رتيبة، إن الزَّلة الثانية تأتي عكس الزلة الأولى في الاتجاه، فكأنها سقوطٌ جهة اليمين مرة، وجهة الشمال مرة أخرى.

ومثل ذلك (الخلخلة) أي: حركة في اتجاهين معاكسين. (خَلّ) الأولى جهة اليمين، و(خَلّ) الثانية جهة اليسار، وبهذا تستمر الخلخلة.

وهكذا (الزلزلة) تحمل داخلها تغيُّر الاتجاه الذي يُسمى في الحركة بالقصور الذاتي. والمثال على ذلك هو: ما يحدث للإنسان عندما يكون راكباً سيارة، وبعد ذلك يأتي قائدُ السيارة فيعوقها بالكابح (الفرامل) بقوة، عندئذ يندفع الراكبُ للأمام مرة، ثم للخلف مرة أخرى، وربما تكسَّر زجاجُ السيارة الأمامي حسب قوة الاندفاع.. ما الذي تسببَ في هذا الاندفاع؟

إن السبب هو أن جسم الراكب كان مُهيأ لأن يسير للأمام، والسائق أوقف السيارة والراكب لا زال مُهيأ للسير للأمام، فهو يرتجُّ، وقد يصطدم بأجزاء السيارة الداخلية عند وقوفها فجأة.

وعملية (الزلزلة) مثل ذلك تماماً، ففيها يُصاب الشيءُ بالارتجاج للأمام والخلف، أو لليمين واليسار، وفي أيِّ جهتين متعاكستين.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج]

والزلزلة: هي الحركة العنيفة الشديدة التي تُخرِج الأشياء عن ثباتها، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتُخلخله من مكانه، حتى تجعلَ له مجالاً في الأرض يخرج منه، إنما لو حاولتَ جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة في خَلْعه، وكذلك يفعل الطبيبُ في خلع الضِّرس.

فمعنى الزلزلة: الحركة الشديدة التي تُزيل الأشياءَ عن أماكنها، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً، فقال: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة]

ويقول تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذي نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت، أو حتى تبتلع بعض القرى، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله، وتُنبهك إلى الزلزال الكبير في الآخرة، إنه صورةٌ مُصغّرة لمَا سيحدث في الآخرة، حتى لا نغتر بسيادتنا في الدنيا، فإن السيادةَ هبةٌ لنا من الله.

وعندما حدث زلزال (أغادير) لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق، ومنها ما خرج إلى الخلاء، فأيُّ إعلام هذا؟ وأيُّ استشعار لديها وهي بهائم في نظرنا لا تفهم ولا تعي؟

إن في ذلك إشارةً للإنسان الذي يعتبر نفسه سيد هذا الكون: تنبّه، فلولا أن الله سيّدك على غيرك من الكائنات لَوكزتْكَ هذه البهائمُ فقضتْ عليك.

نقول: ليس هذا زلزالاً عاماً، إنما هو زلزالٌ مخصوص منسوبٌ إلى الأرض بوحي من الله، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل.

لذلك وُصِف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان: هذا شيءٌ عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت، أما العظيمُ هنا فعظيمٌ بمقاييس الحق سبحانه، فلكَ أن تتصورَّ فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.


سورة العاديات

سورة العاديات

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات]

يوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هي الأصل، وأن نفعيته هي الأصل، وحتى في قضايا الدين ؛ قد يتبع العبد قوله الحق:
﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ ﴾ [الحشر]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعل في ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغير على نفسه، ولكن الواقع الحقيقي أنه يطمع فيما أعدَّه اللهُ له من حُسْن جزاء في الدنيا وفي الآخرة.

إذن: فأَصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات، ولذلك نجد مَنْ يقول: أنا أُحِب الإيمان لأن فيه الخيرية، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أَخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره، وهذا لونٌ من الأنانية الذكية النافعة، لأنها أنانية باقية، ولها عائدٌ إيماني.

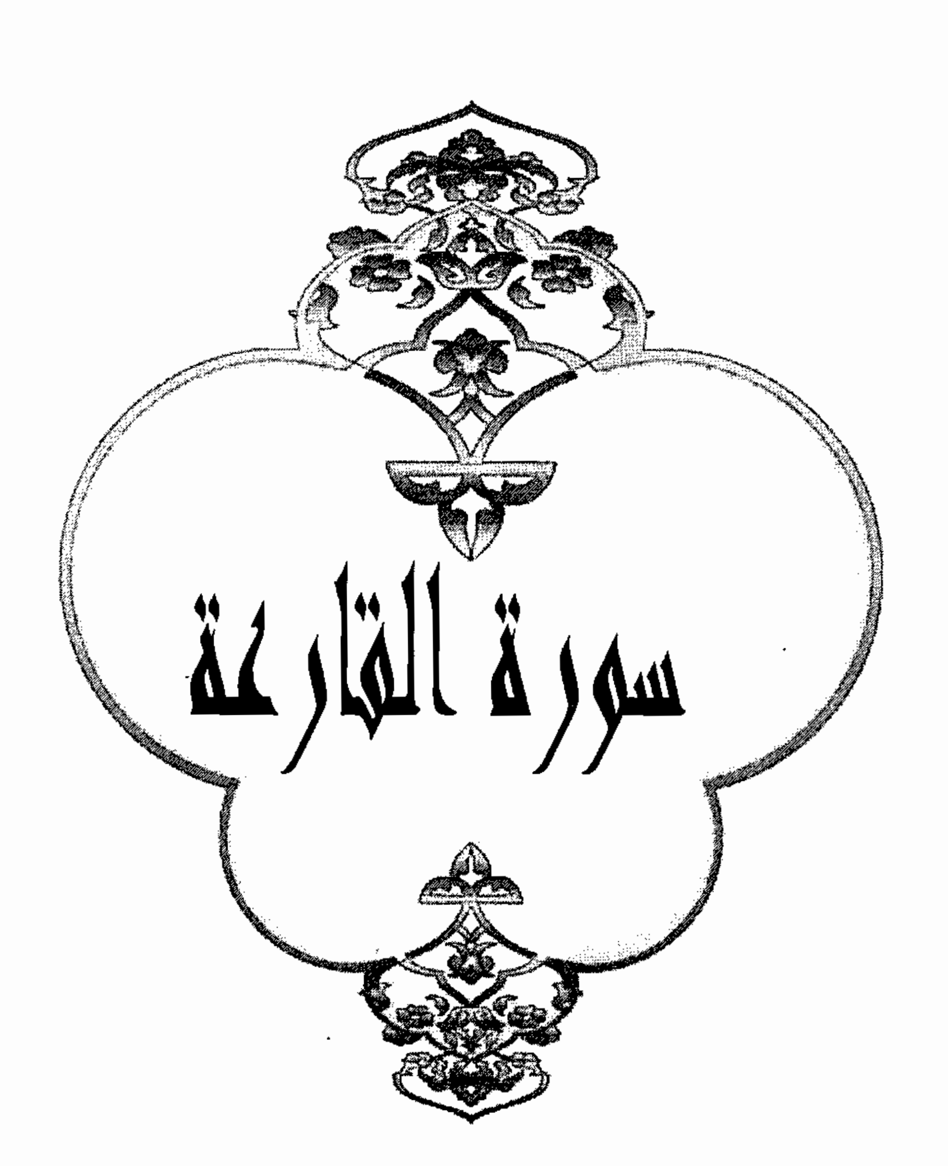
ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعلَ الناسَ كلهم أثرياء، ولم يجعل يداً عليا ويداً سُفلي، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك، ليجعلَ الإنسان ابْنَ أغيار، ويعدل فيه ميزان الإيمان، ولِيذُكّ غرور

الذات على الذات، وليتعلم الإنسانُ أن غروره على ربِّه لن ينالَ من الله شيئاً، ولن يأتيَ للإنسان بأيِّ شيء.

وكلُّ مظاهر القوة في الإنسان ليستْ من عند الإنسان، وليستْ ذاتية فيه، بل هي موهوبةٌ له من الله، وهكذا شاء الحقُّ سبحانه أنْ يُهذِّب الناسَ لِيُحسِنوا التعاملَ مع بعضهم البعض.

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شيء، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة، ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيار، ولِيلفتَهم إلى مُعْطي كلِّ النعم.

كما أن رتابةَ النعمة قد تُنسِي الإنسانَ حلاوةَ الاستمتاع بها، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْنه إلا إذا آلمتْه، وبذلك يتذكر نعمةَ البصر، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفِت للنعمة، وذلك لكي لا ينسى أحدٌ أنه سبحانه هو المُنعِم.


سورة القارعة

سورة القارعة

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ ﴾ [القارعة]

إن حسابَ الحق دقيقٌ عادلٌ، فالذين ثَقلتْ كفة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفة أعمالهم السيئة، فصاروا من أصحاب النار.

إذن: نحن أمام نوعين من البشر، هؤلاء الذين ثقلتْ كفّة الخير في ميزان الحساب، وهؤلاء الذين ثقلتْ كفّة السيئات والشرور في ميزان الحساب.

إن الحق يُطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كفة الميزان، ويُطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيُجازينا على ما أصابنا من شَرِّ الأشرار، وأننا سنأخذ من حسناتهم لتضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفين: طمأننا الحقُّ سبحانه على ما فعلناه من خير، فلا يُنسى أنه يدخل في حسابنا، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شر الأشرار وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا.

ونحن نجد في الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم، وقد تكون هذه الخصلةُ الخيّرة خفيةً فلا يراها أحدٌ، لكن اللهَ الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ يرى هذه الخصلةَ في الإنسان، ويحبه اللهُ من أجلها، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة، فيجعل بعضَ الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد في حسنات هذا الرجل.

فالميزان يثقل بالحسنات، ويخفّ بالسيئات، ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووزان وموزون تقتضي ثلاثة أشياء: أنْ تثقلَ كفة، وتخفّ الأخرى، أو أنْ يتساويا، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا.

والحق سبحانه حين قدر الموزون لهم لم يذكر لنا إلا فريقين اثنين.. فريق ثقلت موازينه، وفريقاً خفَّتْ موازينه.

وثقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات. يعني: كانت حسناته كثيرة، أو كانت قليلة. ويمكن أنْ نقولَ: ثقلتْ موازينه بالسيئات. يعني: كثُرَتْ الحسنات، لكن القرآنَ تكلم من ناحية أن العمدةَ في الأمر الحسنات.

والميزان يقوم على كِفَّتين في أحدهما الموزون، وفي الأخرى الموزون به، وللوزن ثلاثُ صُور عقلية: أنْ يخفّ الموزون، أو يخفّ الموزون به، أو يستويا.

ومُنتهى المنطق في القياس الموازيني أنْ يوجدَ فريقٌ ثالث، هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم، فلم تثقلْ موازينهم

فيدخلوا الجنة، ولم تخفّ موازينهم فيدخلوا النار، وهؤلاء هم مَنْ تُعرضُ أعمالهم ويجلسون على الأعراف.

ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهلَ الجنة يقولون لهم: سلام عليكم. على الرغم من أنهم لم يدخلوا، لكنهم يطمعون في أنْ يدخلوا، لأن رحمةَ الله سبقتْ غضبه.

ونحن نعرف أن أهلَ الأعراف هم قومٌ تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجِزوا على الأعراف، وهو مكانٌ بين الجنة والنار.


سورة التكاثر

سورة التكاثر

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر]

إن اليقينَ عندك ينشأ من إخبار من تثق فيه، وهذا نُسمِّيه علم يقين.. وقد يرتقي الأمر ليصير عين يقين.. عندما ترى الشيءَ بعينك بعد أنْ حُدثتَ عن رؤية غيرك له.. ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حقَّ يقين.

إذن: اليقين علم إذا جاء عن إخبار منْ تثق به.. وعين يقين إذا كان الأمر قد شُوهد مشاهدةَ العين.. وحقٌّ يقين هو أنْ تدخلَ في حقيقة الشيء.

والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى هنا: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

هذه هي المرحلة الأولى أنْ يأتينا علمُ اليقين من الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي المرحلةُ الثانية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ [التكاثر]

أي: أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة.. هذا علمُ يقين، وعينُ يقين.. يأتي بعد ذلك حقُّ اليقين في قوله تعالى:
﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾ [الواقعة]

والمؤمن عافاه الله من أنْ يعاينَ النارَ كحقِّ يقين.. إنه سيراها وهو يمر على الصراط.. ولكن الكافر هو الذي سيصلاها حقيقةَ يقين.

ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قولَ غير المؤمنين، فاليهود قالوا لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً.. ۝٥٥ ﴾ [البقرة].. والمسيحيون قالوا لعيسى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ.. ۝١١٢ ﴾ [المائدة] قال: ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ ﴾ [المائدة]

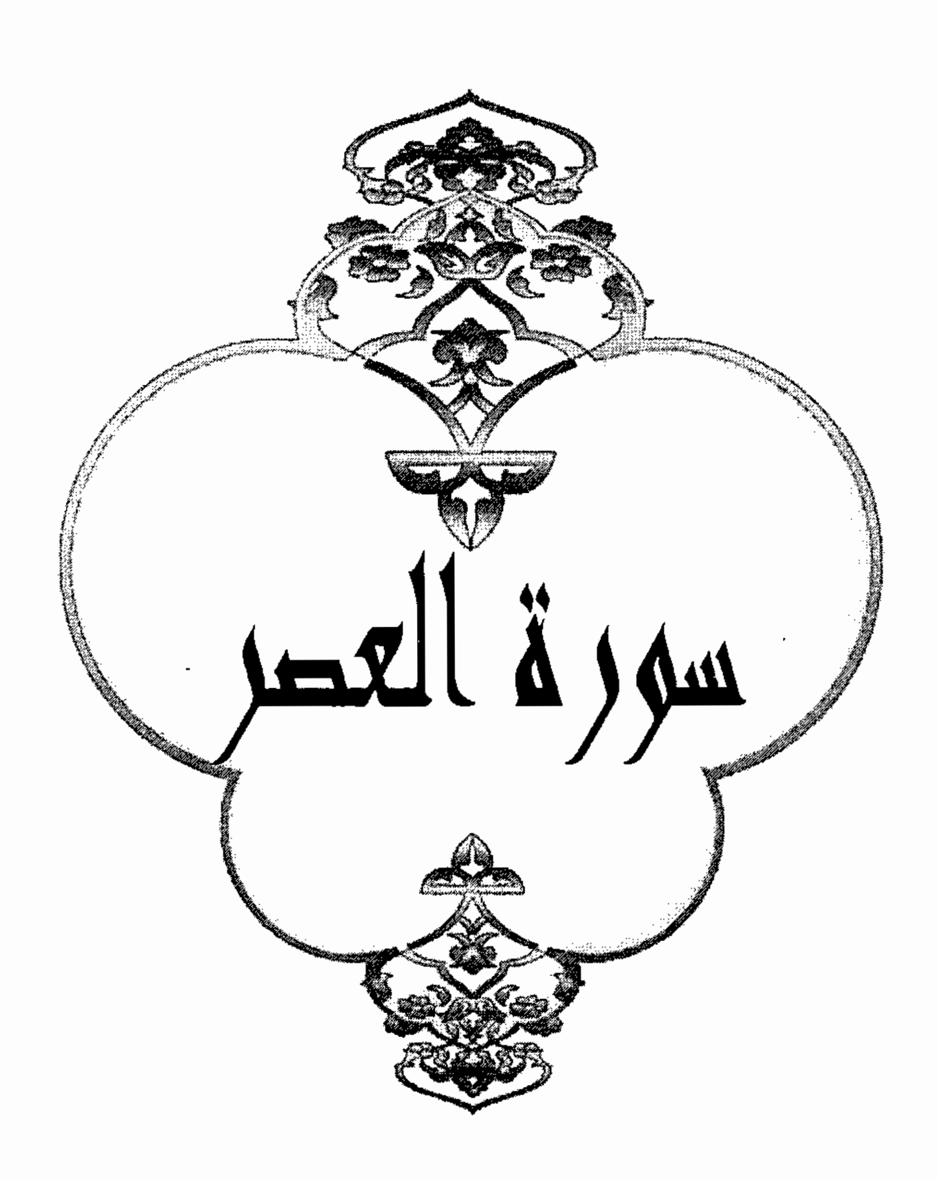
وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأنْ يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية.

وكمثال لهذا.. عندما يخبرنا واحدٌ من الناس أن جزءاً من نيويورك اسمه (مانهاتن). وأن مانهاتن هذه هي جزيرةٌ يصل تعداد سكانها إلى

عشرة ملايين نسمة، وفيها ناطحات سحاب، وجاء هذا الخبرُ ممَّنْ لا نعرف عنه الكذبَ فيسمعه منْ لم يَر نيويورك، فيصير مضمونُ الخبر عنده علماً مُتيقناً، لأن الذي أخبر به موثوقٌ به.

وإنْ جاء آخرُ ووجَّه للسامع عن نيويورك دعوةً لزيارتها ولبَّى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك، هنا تحوَّل الخبرُ من (علم يقين) إلى (عين اليقين).

وإنْ جاء ثالثٌ وصحب السامعَ إلى قلب نيويورك وطاف به في كلِّ شوارعها ومبانيها، فهذا هو (حقُّ اليقين).


سورة العصر

سورة العصر

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

إن قوله الحق: ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ لا يعني أن قوماً خُصُّوا بأنهم يُوصون غيرهم وقوماً آخرين يُوصيهم غيرهُم، بل كلٌّ واحد منا مُوصٍ في وقت، ومُوصىً من غيره في وقت آخر، هذا هو معنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾.

فإذا رأيتَ في غيرك ضعفاً في أيٍّ ناحية من نواحي أحكام الله، فلكَ أنْ تُوصيه، وكذلك إنْ رأى غيرُك فيك ضعفاً في أيٍّ ناحية من النواحي فله أنْ يُوصيك، وعندما نتواصى جميعاً لا يبقى لمؤمن بيننا خطأ ظاهر.

إذن: فالآية لا تَخُصّ بالوصاية جماعة دون أخرى إنما الكلّ يتواصوْنَ، لأن الأغيار البشرية تتناوب الناس أجمعين، فأنت في فترة ضعفي رقيبٌ عليَّ فتُوصيني، وأنا في فترة ضعفك رقيبٌ عليك فأوصيك.

إن الحق سبحانه جاء بكلمة ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾، ولم يأتِ بكلمة: وَصَّوْا.

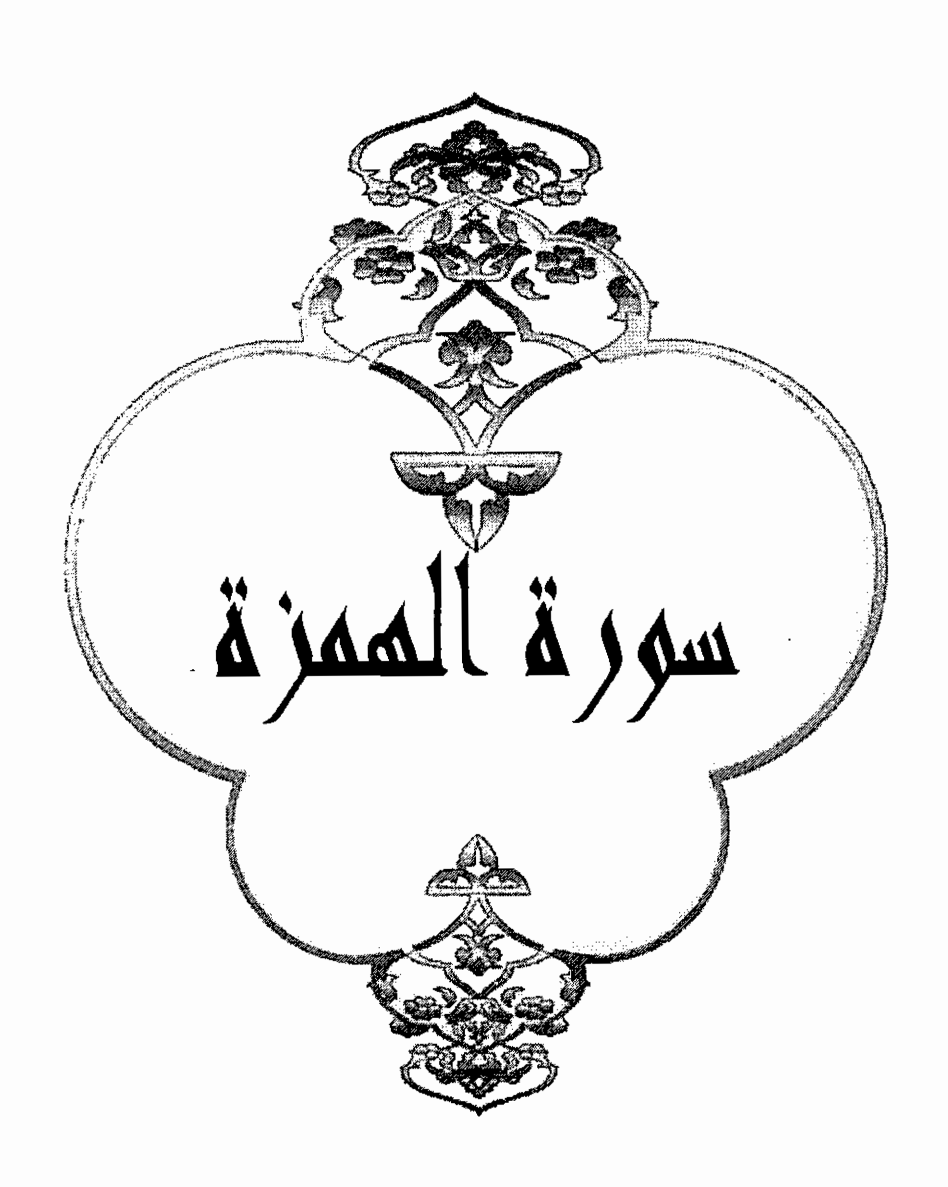
وذلك لنفهم أن التوصيةَ أمرٌ مُتبادلٌ بين الجميع، فساعةَ يوجد إنسانٌ في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيُوصيه.

وترد هذه المسألة أيضاً إلى الموصى، فقد تأتي له لحظة ضعف أمام المنهج، فيجد منْ يُوصيه، وهكذا نرى أنه لا يوجد أناسٌ مخصوصون ليُوصوا، وآخرون مهمتهم تلقِّى التوصية، إنما الأمر متبادل بينهم.

وهذا هو التكافل الإيماني، والإنسان قد يضعف في مسألة من المسائل، فيأتي أخٌ مؤمن يقول له: ابتعد عن هذا الضعف، إن هذه المسألةَ تحدثُ بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار في النفس البشرية، لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال.

فإذا ما رأينا إنساناً قد ضَعُفَ أمام التزام ما، فعلينا أنْ نتواصى بالحق، ونتواصى بالصبر، وأنت أيضاً حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يُوصيك.

هذا هو الحال في أمة محمد ﷺ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهوْنَ عن منكر فعلوه، ولذلك كان لا بدّ أنْ تتدخَّل السماءُ وتأتي برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتاً قسرياً، إلى أن هناك أشياء تأتي بها المعجزة، وهي خَرْق ناموس الكون، وفي ذلك لفتٌ من الله للناس إلى مناطق القدرة.


سورة الهمزة

سورة الهُمَزة

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [الهمزة]

الهُمزة هو الذي يسخر من الناس ولو بالإشارة، يرى إنساناً مصاباً بعاهة في قدمه، يمشي وهو يعرج فيحاول أنْ يُقلده بطريقة تثير السخرية، إما بالإشارة وإما بالكلام، وهناك هَمْز وهُمَزة.

الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس، علامة عدم الإيمان، لأننا كلنا مخلوقون من إله واحد، فهذه الصفة التي سخرت فيها من إنسان أعرج مثلاً، لا عملَ له فيها، ولا حَولَ له ولا قوةَ.

والإنسان لم يصنع نفسه، والحقيقة أنك تسخر من صُنع الله، والذي يسخر من خَلق الله إنسان غبيّ لأنه سخر من خلق الله في عيب، ولم يقدر ما تفضّل الله به عليه، كما أنه سَخر من عيب ولم يفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى قد أعطى ذلك الإنسان خصالاً ومميزات ربما لم يُعطها له.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ.. ۝١١ ﴾ [الحجرات]

إن مجموع كلِّ إنسان يساوي مجموع كلِّ إنسان آخر، وذلك هو عدلُ الله، فإذا كنت أحسنَ من إنسان في شيء فابحثْ عن النقص فيك، فإن استهزأتَ بمؤمن في شيء، فالاستهزاء غيرُ مفصول عن صنعة الله.

فما هي الهُمَزة وما هي اللُّمَزة؟

الهُمَزة: هو مَنْ يعيب في الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأيٍّ حركة من جوارحه.

ومثال هذا: حين تكون هناك مجموعةٌ من الناس جالسين، ويحاول أحدهم النَّيْلَ من أحد الحضور خفية، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر، أو يكون باللسان هَمْساً في أذن إنسان أو بأيٍّ طريقة أخرى، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظمُ الحاضرين.

أما اللُّمَزة العيَّابون في غيرهم في حضورهم، فهناك القويُّ الذي يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللَّماز، أما الضعيفُ فهو يعيب خُفية وهو الهمَّاز. واللمزة تُطلق على مَنْ يعيب كثيراً في الناس.

وهُمَزة لُمَزة، من صيغة المبالغة (فُعَلَة) وتدل على كثرة فعل الشيء. فتقول: فلان أكَلَة -بضمة على الألف- أي: يأكل كثيراً. وفلان ضُحكة -بضمة على الضاد- أي: كثير الضحك.

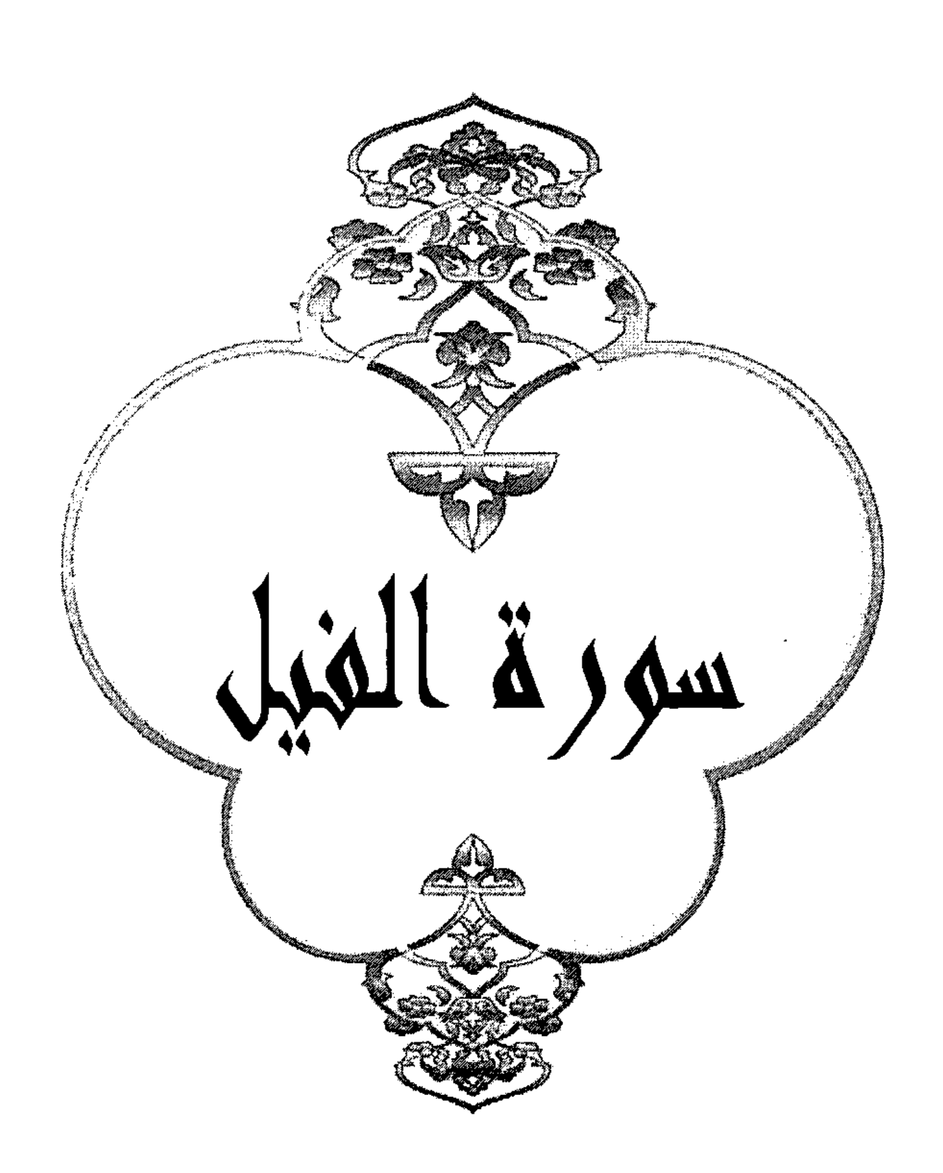
إذن: فاللّمزة هي كثرة العيب في الغير، وهي تدلُّ على ضعف من يقول بها، ولو لم يكُنْ ضعيفاً لقالَ ما يريد بصراحة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة]

واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب، وهو هنا مظروف في شيء هو الصدقات. وكان بعضٌ من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة، وكانوا يعيبون أنْ يتعب الغني ويشقى في الحصول على المال، ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب.

فهل يعيبون التشريع نفسه؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويروْنها كثيرة؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة؟ أم يعيبون الطريقةَ التي يتم بها صرفُ الصدقة للفقراء، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعْطى قليلاً؟ لقد كانوا يعيبون في كلِّ الأمور أو بعضها.

إذن: فاللمز إما أنْ يكونَ في التشريع، وإما أنْ يكونَ في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف.


سورة الفيل

سورة الفيل

الرؤية الإيمانية

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

هناك نوعان من الرؤية: رؤية عينية. أى: بالعين. والرؤية الإيمانية أى: بالقلب، وكلاهما مختلفٌ عن الآخر، فرؤية العين هى أن يكون الشيء أمام الإنسان يراه بعينيه، وهذه ليس فيها قضيةَ إيمان، فلا يقول شخص لآخر: إننى أؤمن بأننى أراك أمامى، لأن الرؤيةَ العينية يقينٌ لا يحتاج إلى تأكيد.

ولكن الرؤية الإيمانية هى أنْ تؤمنَ كأنك ترى ما هو غيبٌ أمامك، وتكون هذه الرؤيةُ أكثرَ يقيناً من رؤية العين، لأنها رؤيةُ إيمان ورؤيةُ بصر، كما رُوىَ فى الحديث الشريف ((أن الإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإنْ لم تَكُنْ تراه فإنه يراك)) وتلك هى الرؤية الإيمانية.

فالإنسان عندما يؤمن، لا بدّ أنْ يأخذَ كلَّ قضاياه برؤية إيمانية، حتى إذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهلَ الجنة وهم يُنعَّمون، وإذا قرأ آيةً عن أهل النار اقشعرَّ بدنه وكأنه يرى أهلَ النار وهم يُعذَّبون.

وهو ما نلحظه ممَّا كان من حوار بين رسول الله ﷺ وأحد الصحابة يسمى (حارثة) حيث قابله الرسولُ، فقال له: كيف أصبحتَ يا حارثة؟ فقال: أصبحتُ مؤمناً حقاً. فقال الرسول ﷺ: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقةً فما حقيقة إيمانك؟ قال حارثة: عزفتْ نفسى عن الدنيا فأسهرتُ ليلى وأظمأتُ نهارى، وكأنِّى أنظرُ إلى عرْش ربِّى بارزاً،

وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنِّى أنظر إلى أهل النار أى: يتصايحون فيها. قال رسول الله ﷺ: يا حارثة.. عرفتَ فالزمْ.

وهذه الرؤية القلبية هى التى يؤمن بها المؤمنون بما لم يَرْوه وذكره القرآن، لذلك نجد قوله تعالى فى آيات من القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

والذين لا يفهمون يقولون: لقد كان الرسول فى المهد صبياً، فكيف يسأله اللهُ على هذا السؤال؟ لأنهم لا يدركون أنه أسلوبٌ بإخبار بصدق كأنه رؤيةٌ.


سورة قريش

سورة قريش

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤ ﴾ [قريش]

كانت لقريش السيادةُ على كل الجزيرة، فلا يستطيع أحدٌ من أيٍّ قبيلة في الجزيرة أنْ يتعرَّض لقافلة قريش، لأن القبائلَ تخاف من التعرُّض لهم، ففي موسم الحج تذهب كلُّ القبائل في حضن قريش.

والمهابة المأخوذة لهم جاءتْ لهم من البيت الحرام الذي حفظه الله ورعاه وهزم مَنْ أراده بسوء وردّ كيده ودمره تدميراً تاماً، كما جاء في قول الحق:

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥ ﴾ [الفيل]

وعلّة هذه العملية تأتي في السورة التالية لها، وهي قوله سبحانه:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ [قريش]

فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيتَ لعبادته لانتهى وانتهتْ منهم السيادة، فلا يقدرون أنْ يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ﴾ [قريش]

فسبحانه الذي جعل لهم السيادة والعزّ. وهو: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤ ﴾ [قريش]

وجاء لهم بثمرات كل شيء، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم في الشمال وفي الجنوب.

وقد ألفت قريش واطمأنت إلى أن الكعبة لن يمسَّها سوءٌ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مَصُونة بحكم حاجة كلِّ القبائل إلى الحج. وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝ ﴾ [قريش]

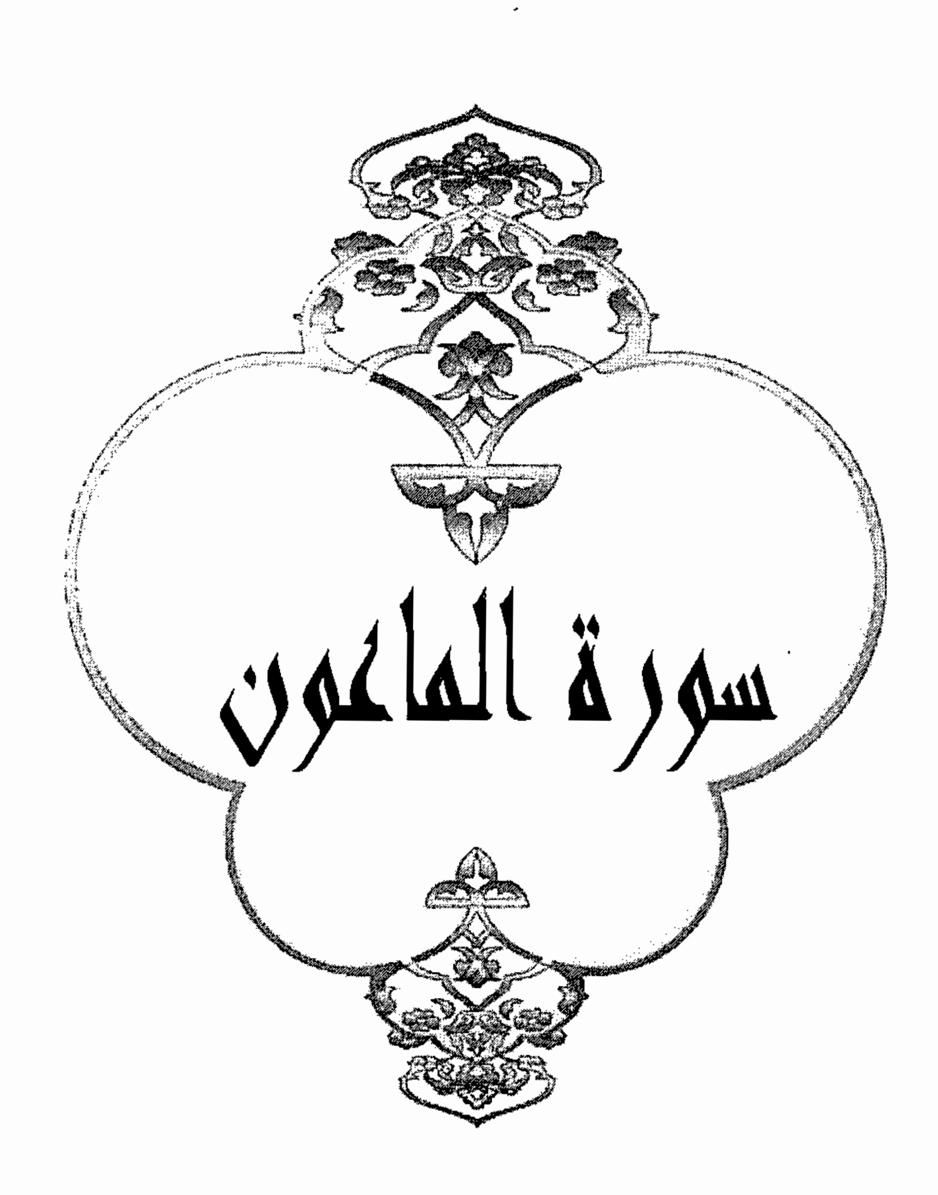
أي: أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرةَ بالخوف، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التي جعلها اللهُ للناس جميعاً قياماً وأمناً، لأن الذين يذهبون إلى حجِّ البيت يُكفِّر عنهم سبحانه سيئاتهم، ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتْهم أمهاتهم، وهذا قيامٌ لحياتهم الأخروية أيضاً.

إذن: جعل اللهُ البيتَ الحرام قياماً لكل ألوان الحياة، والبيتُ الحرام مكانٌ كما نعلم، وجعل الحقُّ الشهرَ الحرام أيضاً قياماً للحياة.

والكعبة هي مركز السيادة لقريش، ولولا الكعبةُ لكانتْ قريشٌ كسائر القبائل.

لقد أراد الحق سبحانه أنْ يوضحَ لقريش أن السيادة التي أخذتموها على العرب كافة جاءتْ لكم بسبب الكعبة وهذا البيت، فلو لم يوجد هذا البيتُ وهذه الكعبة، لكنتم قبيلةً من القبائل، لا مهابةَ لكم ولا سلطان، ولا جاه، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب، ولا يتعرض لها أحدٌ بسوء أبداً.

فالذين يتعرَّضون لكم سواء منهم منْ كان في الشمال أو في الجنوب سيأتون في يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسكَ الحج، وستتمكنون منهم في أثناء وجودهم في البيت.



سورة الماعون

سورة الماعون

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ [الماعون]

الماعون: أواني البيت التي لا تتيسَّر للجميع، فعادةً ما يكون في الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران، عندهم مثل هذه الأشياء: ماجور العجين، أو المنخل، أو الغربال، أو الهون.. إلخ.

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه، وهذا ما قال الله فيه :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون، وهو أدوات البيت التي يستعيرها منك جارُك غيرُ القادر على توفيرها في بيته.

وهم يبخلون حتى بالكلمة فيقول تعالى عنهم: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾ [الماعون]

وحتى إنْ كنتَ لا تمتلك ولا تعطي، أفلا تحثَ مَنْ عنده أنْ يُعطي؟ أنت ضنينٌ حتى بالكلمة، فمعنى تحضّ على طعام المسكين أي تحثَ غيرك، فأنت تضن حتى بالنصح.

والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان، القول حدث من اللسان، وهو عمل أيضاً، والمقابل للقول هو الفعل. فالأعمال تنقسم إلى قسمين: إلى الأقوال وإلى الأفعال.

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم، ولما سمع الفقراء هذا القول، كأنهم قالوا: نحن لا نملك ما نطعم به المسكين، فكان في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾ [الماعون] ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء. أي: حُضُّوا غيركم على العطاء.

أي: أن الذي لا يملك يمكنه أنْ يُكلم الغني ليعطي المسكين، والحضُّ هو كلام، والكلام من العمل.

وأنتم لا تُطعمون في مالكم يتيماً، ولا تحضُّون على طعام مسكين، فكيف يكون المالُ نعمة؟ إنه نقمةٌ عليكم.


سورة الكوثر

سورة الكوثر

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر]

يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر]

والمعطى هنا هو الله، والمُعطَى له هو رسول الله، والشيء الذى أُعطيَه هو الكوثر، وكلمة (الكوثر) تُستعمل فى اللغة فى وصف نسب الأشياء قلة وكثرة.

يُقال: هذا أقل، وهذا قليل، وهذا كثير، وهذا أكثر، وهذا كوثر.

إذن: فكلمة (كوثر) هى أوسع الكلمات دلالة على معنى الكثرة، فكلمة أكثر نلاحظ فيها أنه كثير بالنسبة لنوعه، كمن يعطى شيئاً من المال، فالذى يعطى كثيراً تقول: هذا أعطى مالاً كثيراً، فعندما يزيد نقول: أعطى أكثر.

ولكن عندما يعطى مالاً كثيراً، وبعد ذلك يعطى صحة وسعادة كثيرة وطعاماً ونباتاً وحيواناً كثيراً وكذا.. وكذا. فتعدد الأنواع فى الكثرة يعنى: أكثر، ولكن كوثر تتأتى بكثرة فى أنواع متعددة.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر] فمعناه أنه أعطاه الكثير الأكثر من كل شيء.

قال أنس: أغفى رسول الله إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقال:

((أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر].. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله

ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: ربِّ إنه من أمتى. فيقول: ما تدرى ما أحدثتَ بعدك)).

بعض المفسرين اختلفوا فى المراد بالكوثر، وهل بعد رسول الله قول؟

إن الحق سبحانه يريد أنْ يؤكد فى هذه السورة على مسألة العطاء، تأكيد العطاء بأنه لم يقل: أعطيناك الكوثر. بل قال: ﴿ إِنَّآ ﴾.

وعندما تسمع ﴿ إِنَّآ ﴾ لا بُدَّ وأنْ تتوقع مجيء خير كثير، لأنه استهل بضمير الحق العظيم ﴿ إِنَّآ ﴾، وبعد ذلك عندما يقول ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ فلا بُدَّ وأنْ تأخذ العطاء على قدر إمكانيات المعطى.

إذن: ﴿ إِنَّآ ﴾ هذه نبهت ذهنك وجعلتك تلتفت لتوقع مجيء شيء خطير، والشيء الذي سيأتى أنه قال: ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾. إذن فضخامة العطاء لا بُدَّ أن تتناسب إمكانيات المعطى، فإن الحق سبحانه وتعالى حينما يأتى بأمر فيه فعل يبرز به معدوماً يتكلم بضمير التعظيم: خلقنا.. فعلنا.

وما دام العطاء من الله فهو عطاء له إمداد دائم، لأن ربنا ليس عنده كمية من الأشياء إذا أعطاها تنتهى، فهو عطاء ممن لا حدود لإمكانياته، والذى عنده لا ينفد، فهو موصول دائماً.


سورة الكافرون

سورة الكافرون

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون]

إنه سبحانه يوضح: ليس هناك مُضارَّة بين دينين، دين للكافرين، ودين للمؤمنين، لا، بل هو دينٌ ومنهجٌ واحدٌ صالحٌ للإنسان هو منهج التوحيد جاءتْ به الرسل جميعاً، وختم بالإسلام الذي لا دين بعده.

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين: فريق يرى أنه على حق، وفريق ثانٍ أنه على باطل، وقد يكون قطعُ العلاقات أمراً موقوتاً.

وقد تضغط الظروفُ والأحداث إلى أنْ نعيد العلاقات الدنيوية ثانية، ولكن قطعَ العلاقات لا بدَّ أن يكون مؤيداً في شأن العقيدة ولا مداهنة في هذا، ولذلك قالها الحق مرتين: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾ [الكافرون]

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل، ويعلم استحالة أنْ يعبد ما يعبده الكافرون، واستحالة أنْ يعبد الكافرون ما يعبد.

وقد يقول قائل: إن القرآن في ترتيبه النزولي لا بد ألاّ يتعارض مع واقعه، ولكننا نرى في قوله تعالى: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ [الكافرون] وكررها مرتين.

إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين، فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل في دين الله. نقول: نعم إنه لا يتعارض، لأن الحقّ لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا، بدليل أنه قال جلّ وعلا:

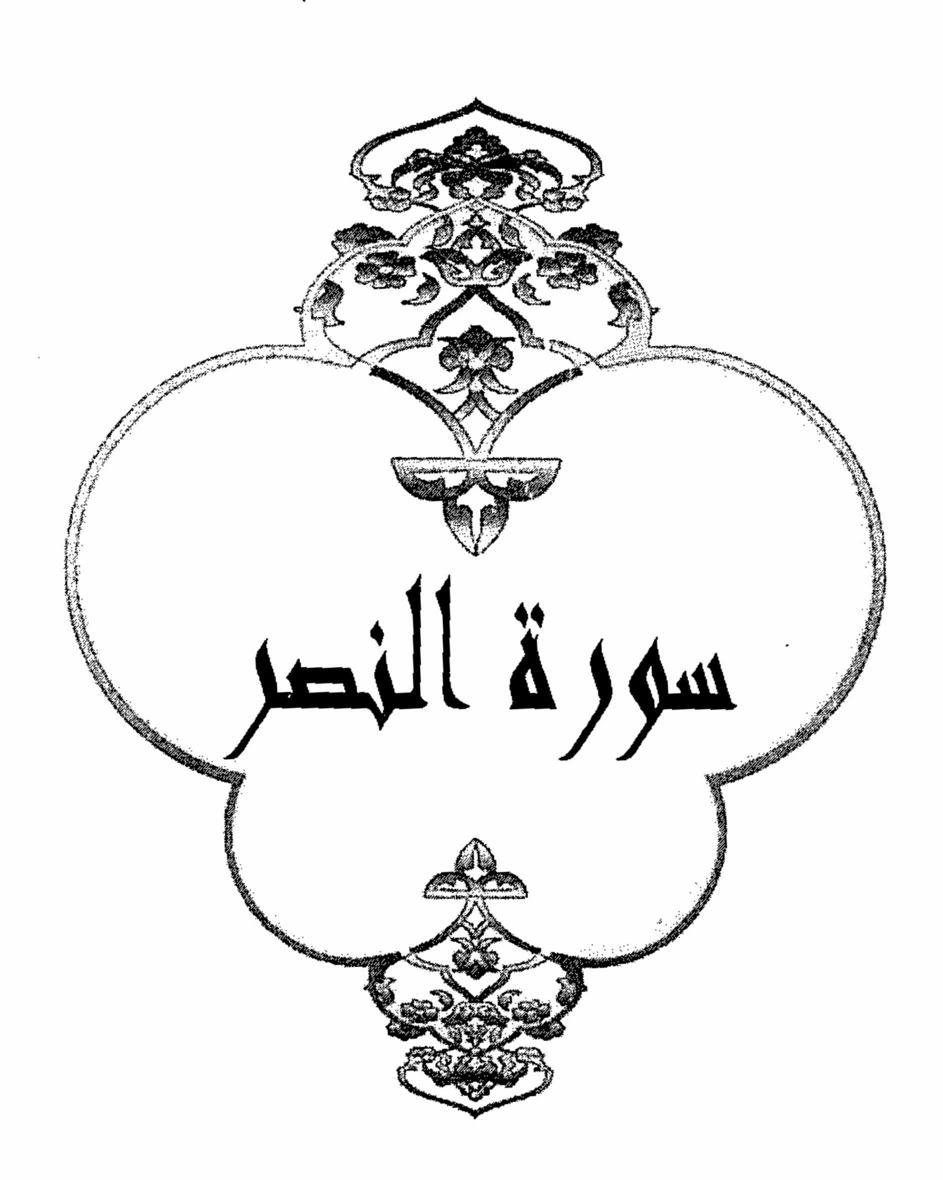
﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر]

إذن: فالمسألة لن تجمد عند ذلك، فمعسكر الإيمان سيتوسع، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناسُ في دين الله أفواجاً، ولكن هناك منْ قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار.

فقال سبحانه من بعد ذلك: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد]

إذن: فأبو لهب ومنْ على شاكلته سيدخل النار، ولن يدخل في دين الله أبداً. ويجيء قول الحق سبحانه: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾ [النصر]

هذا القول يفتح باب الأمل، ونرى دخول عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام. ومجيء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي لهب وزوجه.


سورة النصر

سورة النصر

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ [النصر]

النصر الحقيقي هو النصر الذي يأتي من الله، لماذا؟

لأن النصر أول ما يأتي من ناحية الله فاطمئن على أنك خالصٌ ومخلصٌ لله، وإلا ما جاءك نصره، فساعةَ يأتيك نصرُ الله فاطمئن على نفسك الإيمانية وأنك مع الله.

والحق سبحانه يقول: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ .. ۝١٦٠ ﴾ [آل عمران] فأنت تضمن نصر الله لك إنْ كنتَ قد دخلتَ على أنْ تنصره.

كيف نعرف أننا ننصر الله؟ نعرف ذلك عندما تأتي النتيجة بنصرنا، لأنه سبحانه لا يعطي قضية في الكون وبعد ذلك يأتي بالواقع ليُكذِّبها، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا -معاذ الله- لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتي الواقع ليكذبها، فلا بد أنْ يقولوا: إن الواقع كذّب تلك القضية.

لكن الحق قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ.. ﴿٧﴾ ﴾ [محمد] ويجيء الواقع مؤكد لهذه القضية، عندئذ نحن لا نصدق في هذه القضية فقط، بل نصدق كل ما غاب عنا، فعندما تظهر جزئيةٌ ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لي صدق القرآن في قضية، فأنا لا أكتفي بهذه القضية، بل أقول: وكل ما لا أعلمه داخلٌ في إطار هذه القضية.

وهو سبحانه وتعالى الناصر، وهكذا يكون المؤمنُ الذي يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر، لكن إياكم أنْ تظنوا أن النصرَ من الله لا يصدر عن حكمة.

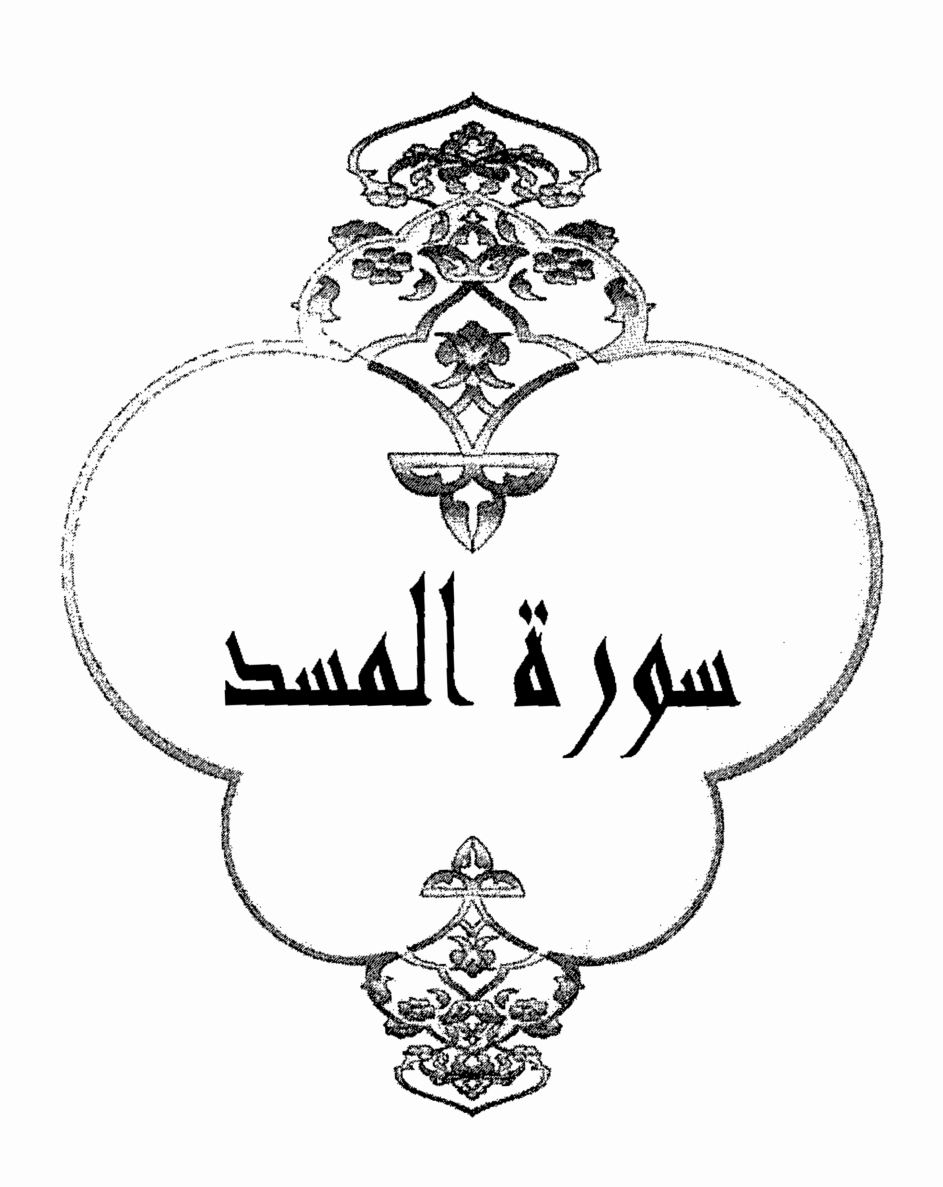
إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً، فإنْ تهاونتم في أيِّ أمر يُسلب منكم النصر، لأن الله لا يُغير سننه مع خلقه، وقد رأينا ما حدث في غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله ﷺ فلم ينتصروا، لأن الحكمة اقتضتْ ألاَّ ينتصروا.

ولو نصرهم اللهُ لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله ﷺ، ولقالَ بعضٌ منهم: خالفناه وانتصرنا، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام، فحين جاء الأمر من رسول الله في غزوة أحد بما معناه: يا رماة لا تتركوا أماكنكم، ولو رأيتمونا نفرُّ إلى المدينة، فلا شأنَ

لكم بنا، وعلى كلٍّ منكم أنْ يأخذ دوره ومهمته، فإذا رأى أخاً له في دوره قد انهزم فليس له به شأن، وعلى كل مقاتل أنْ ينفذ ما عليه.

لكنهم خالفوا فسلبهم اللهُ النصر، وهكذا يتأكد لهم أن النصرَ من عند الله العزيز الذي لا يُغلب. وقال البخاري عن البراء بن عازب قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير.

وقال عليه الصلاة والسلام: ((لا تبرحوا.. وإنْ رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإنْ رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا)).


سورة المسد

سورة المسد

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ [المسد]

هذه السورة دليلٌ من أدلة الإيمان بصدق الرسول في البلاغ عن الله، لأن أبا لهب كان كافراً، وكان هناك كفرةٌ كثيرون سواه، ألم يكُنْ عمر بن الخطاب منهم؟ ألم يكُنْ خالد بن الوليد منهم؟ ألم يكُنْ عكرمة بن أبي جهل منهم؟ ألم يكُنْ صفوان منهم؟

كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا، فمَن الذي كان يدري محمداً ﷺ أنه بعد أن يقول: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ [المسد]

منْ كان يدري محمداً بعد أنْ يقول هذا ويكون قُرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين، وبعد ذلك كله مَنْ كان يدريه أن أبا لهب يأتي ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله.

وقد يضيف: إنْ كان محمدٌ يقول: إنني سأصْلى ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنتُ، مَنْ كان يدريه أنه لن يفعل، مثلما فعل ابنُ الخطاب، وكما فعل عمرو بن العاص. إن الذي أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً، فيُسجلها القرآنُ على نفسه، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافراً.

ألم يكُنْ باستطاعة أبي لهب وزوجه أنْ يقولا في جمع: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، ويتم انتهاء المسألة؟ ولكن الله الذي لا مُعقِّبَ لحكمه قد قضى بكفرهم.

وبعد أنْ ينزل الحقُّ هذا القولَ الفصْلَ في أبي لهب وزَوْجه يأتي قولُ الحق في ترتيبه المُصحفي ليقول ما يوضح: إياكم أنْ تفهموا أن هذه القضية تنقض، فسيَصْلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب.

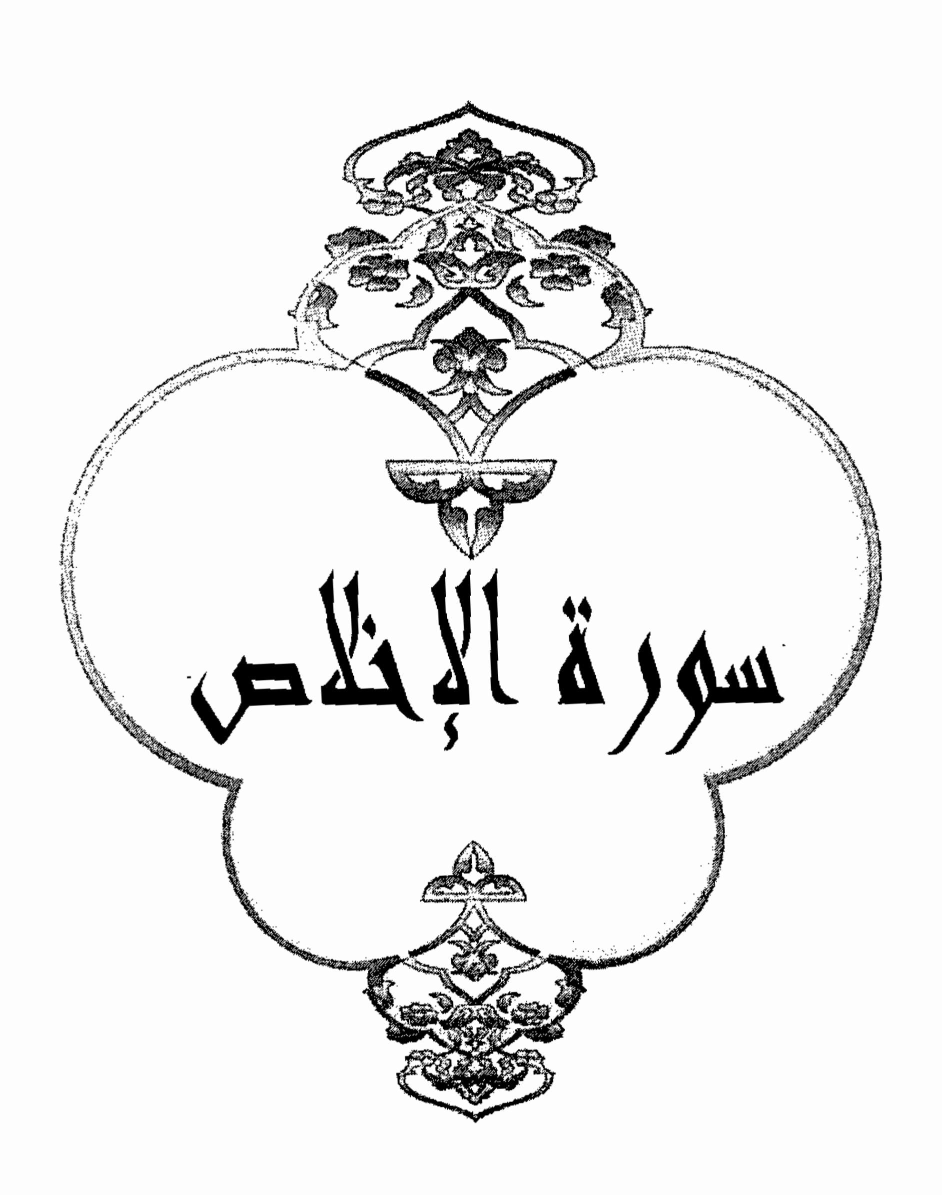
وقال الحق سبحانه بعدها مباشرة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ ﴾ [الإخلاص] فلا أحدَ سيُغير حكم الله.

وهذا يؤكد لكل مسلم: إياك أنْ تأخذَ هذه القضية مأخذَ الشك، وتقول: قد يتوبُ أبو لهب هذا وزوجه ويُسْلمان، ألم تَتُبْ هند؟! ألم يسلم أبو سفيان؟! لكنه سبحانه عالمٌ بما يصير إليه اختيارُ أبي لهب واختيارُ زَوْجه.

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة، لأن الحقَّ سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّي إنني سأصلَى النار، لكن ها أنذا أعلنُ أنني أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أنك رسولُ الله.

لكن ذلك الذكاء لم يكُنْ يملكه أبو لهب، فقد علم اللهُ أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص. وكان إسلامُ هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير، لكن هذا التقدير إنما يتم حسْب المعلومات المتاحة لهم، ولا يملك إنسانٌ علماً كونياً أزلياً بتقديراته، فعلمه محدود، وقد يأتي الأمرُ على غير ما يُقدِّر، لأن الإنسانَ لا يملك ما يقدر.


سورة الإخلاص

سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص]

قضية الإيمان بإله واحد أحد لـه الكمـال المطلـق، سـبحانه فـي ذاته، وسبحانه في صـفاته، وسـبحانه فـي أفعالـه، كـلُّ ذلـك قـدرُ الرسالات فيه مشترك.

واللهُ الذي بعث إسماعيلَ هو الله الذي بعث إسـحق.. إلـهٌ واحـدٌ أحد.. ومـا دام الإلـهُ واحـداً فـالمنهجُ الإيمـاني لا بـدَّ أنْ يكـونَ واحداً.. فإذا حدث خـلافٌ فـالخلافُ مـن البشـر الـذين يُحرِّفـون المنهجَ ليُحققوا شهوات ومكاسبَ لهم.

وعظمةُ الحقِّ سبحانه أنه واحدٌ أحد فرْدٌ متفرد صمد، وهو عزيزٌ لا يُغْلب على أمره.

للحق سبحانه وتعالى وصفان يتحدان في المادة وفي الحروف:

الأول: هو (واحد). والآخر: هو (أحد).

والسطحيون في الفهم يظنون أن (واحداً) معناها (أحد).

ونقول: لا، إن (واحداً) لها مدلول، و(أحدًا) لها مدلولٌ آخر. فعندما نقول: إن الله واحد. أي: لا يوجد فردٌ ثان من نوعه فليس له مثيلٌ ولا شبيهٌ ولا نظيرٌ.

وعندما نقول: (إن الله أحد) أي: أنه لا يتكوَّن من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل، لأن الشيء قد يكون واحداً وليس أحدًا. ولذلك نؤكد الفارق بين: (واحد) و (أحد). وحتى يعرفه كلُّ مؤمن جيداً.

فهو سبحانه واحدٌ لا يوجد فردٌ ثان يشاركه في وحدانيته، فهو واحدٌ لا شريكَ له، وهو أحدٌ جلَّ وعلا. أي: ليس له أبعاضٌ يحتاج بعضُها إلى بعض.

وهناك شيءٌ اسمه: (كل) وشيءٌ آخر اسمه (كلي). والكل هو المُكوَّن من أجزاء، كلُّ جزء منها لا يؤدي الحقيقة، وإنما لا يُؤدي الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض.

ومثال ذلك الكرسي: إنه مُكوَّن من خشب ومسامير وغراء، فلا يُقال للخشب كرسي، ولا يُقال للمسامير كرسي، ولا يُقال للغراء كرسي. ولكن يُقال للشيء المصنوع من كلِّ هذه الأشياء على هيئة محددة: إنه كرسي.

إذن فـــ (الكل) له أجزاء تجتمع لتُكوّنه. والكلّي يمكن أنْ يُطلق على الإنسان، ولكن في الجنس البشري هناك أفرادٌ كثيرون له.

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس (كُلاًّ) أي: لا أجزاءَ له لأنه أحدٌ، وليس (كلياً) لأنه لا شيءَ مثله، فسبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ. ولهذا نفهم جميعاً أن كلَّ شيء منسوبٌ إلى الله ينبغي أنْ يكونَ في إطار: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ.. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]


سورة الفلق

سورة الفلق

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق]

الحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد، قلب متمرد على قسمة الله في خلقه؛ لأن الحسدَ كما قالوا: هو أنْ تتمنى زوالَ نعمة غيرك، ويقابله (الغبطة) وهي أنْ تتمنى مثل ما لغيرك، فغيرُك يظل بنعمة الله عليه، ولكنك تريد مثلها.

وأنت إنْ أردتَ مثلها من الله فلا بدّ أنْ تغبطه، ولذلك يجب أنْ يكون الناسُ في عطاء الله غيرَ حاسدين وغير حاقدين، لكن بعضَ الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبةً في أنْ يكون ذلك لهم وحدهم.

فإنك إنْ كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قومٌ في حاجة فأعطيتهم منه، ربما قال الآخرون ممنْ يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك: إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطي هؤلاء، لأن ما عندك محدود، ولكن هنا العطاء ممَّنْ لا ينفد ما عنده، إذن: فيعطيك ويعطي الآخرين، ولا ينقص مما عنده شيء.

إذن: فالغبطة أمر بديهي عند المؤمن، لأنه يعلم أن عطاءَ الله لواحد لا يمنع أنْ يعطي الآخر، ولو أعطي سبحانه كلَّ واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخْيط إذا غُمسَ في البحر.

وذلك كما جاء في الحديث القدسي: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخْيط إذا أدخلَ البحر)).

فالحسد كما عرفنا هو: أنْ يتمنى إنسانٌ زوالَ نعمة غيره، هذا التمنِّي معناه أنك تكره أنْ تكونَ عند غيرك نعمة، ولا تكره أنْ يكونَ عند غيرك نعمة إلا إذا كنتَ مُتمرداً على منْ يعطي النعم.

إن أولَ خطأ يقع فيه الحاسدُ هو: ردّه لقدر الله في خَلق الله، وثاني ما يصيبه أنه قبل أنْ ينال المحسود بشرّ منه، فقلبه يحترق حقداً. ولذلك قالوا: الحسد هو الذنب أو الجريمة التي تسبقها عقوبتها، لأن كلَّ جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد، فقبل أنْ يرتكبَ الحاسدُ الحسدَ تناله العقوبة، لأن الحقد يحرق لُبَّه. وربما قال قائلٌ: وما ذنب المحسود؟

ونقول: إن الله جعل في بعض خلقه داءً يصيب الناس، والحسد يصيبهم في نعمهم وفي عافيتهم. وما ذنب المقتول حين يُوجِّه القاتلُ مسدسه ليقتله به؟ هذه مثل تلك، فالمسدس نعمةٌ من نعم الله عند إنسان ليحميَ نفسه به، وليس له أنْ يستعمله في باطل.

وهَبْ أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شيئاً يكره النعمة عند غيره، فلماذا لا يتذكَّر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أنْ يقرنها بقوله: (ما شاء الله لا قوة إلا الله).

فلو قارنتْ كل نِّعمة عند غيرك بما شاء اللهُ الذي لا قوةَ إلا به لرددتَ عن قلبك سُمَّ حقدك، إنك ساعةَ ترى نعمة عند غيرك وتقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فأنت تتذكر أن الإنسانَ لم يُعط نفسه أيَّ نعمة.

إنما ربنا هو الذي أعطاه، وسبحانه قادرٌ على كل عطاء، ومن الممكن أن يحسدَ الإنسان، لكن الذي يجد الحسد في نفسه ويريد أنْ يُطفئه، عليه أن يردّ كل شيء إلى الله، وما دام قد ردّ كلَّ شيء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسداً، ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة.

والحق سبحانه وتعالى بيّنَ لنا ذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق]

إذن: فمن الممكن أنْ يمتلئ قلبُ أي واحد منا بالحقد على نعمة، وبعد ذلك يحدث منها حسد، وعلى كلِّ واحد منا أنْ يمنع نفسه من أنْ يدخل تيارُ الحقد على قلبه، لأن تيار الحقد يُحدث تغييراً كيماوياً في تكوين الإنسان.

وهذا التغيُّر الكيماوي هو الذي يسبب التعب للإنسان، وما يُدرينا أن هذا التوتر الكيماوي من النعمة عند غيره تجعل في نفس الإنسان وفي مادته تفاعلات، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاعٌ يذهب للمحسود فيقتله؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق]

وعندما تستعيذ بالله من شر الحاسد ألاّ يصيبك، قد يصيبك، ولكن استعاذتك من شره تعني أنه إنْ أصابك فعليك أنْ تسترجع، فتقول: (إنَّا لله وإنا إليه راجعون) وتعلم أن ذلك خيرٌ لك، فإنْ أصابك في نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خيرٌ، فالحاسد إذا أصابك في شيء من نعم الله عليك، فالشرُّ هو أنْ تحرم الثواب عليها!!

فالمصاب هو من حُرِمَ الثواب، فإذا جاءتْ مصيبة لأيِّ واحد وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم إنك ربي، وإنك لا تحب لي إلاّ الخيرَ لأنِّي صنعتك ولم تُجر عليّ إلاّ الخير، لكنني قد لا أستطيع أنْ أفهمَ ذلك الخير.

إن المسلم إذا صنع ذلك، فالله سبحانه وتعالى يُبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له. فالمصاب لا بد أنْ يتوقّع الخير وأنْ يسترجعَ وأنْ يقولَ: لا بدّ أنه سيأتيني من الابتلاء خير.

وقد يقول قائل: نحن نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يُعذنا اللهُ من شرّ الحاسدين، ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له: أنت لم تفهم معنى قوله ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق] إنك تفهمه على أساس ألاَّ يُصيبك حسده، لا.. إن حسده قد يُصيبك، لكن عليك أنْ تعرفَ قدر الله في تلك الإصابة، وتقول: يا ربّ إنك أجريتها عليّ لخير عندك لي، فإنْ فعلتَ ذلك فقد كُفيتَ شرّاً.

ونحن نعيش في عالم نرى فيه أنه كلما ارتقتْ الدنيا في العلم بيّن لنا ربنا آيات في كونه وفي أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعاني، فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير، كلما يلطف السلاح ويدقّ، ولا يكون داخلاً تحت مرائي البصر كان عنيفاً، ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة.

حيث كان الإنسانُ يرمي آخر بحجر، ثم آخر يرمي بمسدس، ثم صار في قدرة دولة أنْ تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أيّ فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل.

إذن: فأسلحة الفتك كُلما لَطُفتْ -أي دقتْ- عنفتْ. ونرى الآن أن الأسلحة كلها بالإشعاع، والإشعاع ليس جِرْماً، وعمل الإشعاع نافذ لكن لا يوجد له جُرْم، وكما يقول الأطباء: نُجري العملية من غير أنْ نسيل دماً بوساطة الأشعة، ومثال ذلك أشعة الليزر، إذن: فكلما دقّ السلاحُ كان عنيفاً وفتاكاً.

إذن: فكلما دقّ العدو كان عنيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر. ونحن نعلم أن الميكروبَ الذي لا يُرى يأتي فيفتك بالناس، فالآفةُ التي تصيب الناس كلما لطفت -أي: دقتْ وصَغرتْ- عنفتْ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أنْ يدفعها الإنسانُ قليلاً قليلاً، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصِّغر، هنا لا يستطيع الإنسانُ أنْ يدفعها.

وأفتك الميكروبات هي التي تدِق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض: لا نعرف لها فيروساً، بمعنى أن هذا الفيروسَ المُسبِّب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر.

إذن: فما الذي يجعلنا نضيق ذَرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذي تُشقيه النعمة عند غيره، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشيء فتفتك به!! ما المانع من هذا؟!

إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أيِّ شيء، والأشعة هي من أفتك الأسلحة في زماننا، ولماذا لا نُصدّق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكوَّن منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به؟ ومثلها مثل أيِّ نعمة ينعمها ربنا عليك، وبعد ذلك تستعملها في الضرر.

ومثال ذلك الرجل الذي عنده بعض من المال، ومع ذلك يغلي حقداً على خصومه، فيشتري مسدساً أو بندقية ليقتلهم، إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائلَ انتقام، وهذا يأتي من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان.


سورة الناس

سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس]

إن الله سبحانه قد سَمَّى الشيطانَ (الوسواسَ الخناس)، إنه يُوسوس للناس لكنه خنَّاس فإذا ذُكر اللهُ يخنِس، أي: يتأخر ويختفي. ولكنَّه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك، لكن حين تكونُ مع ربك فهو لا يقدر عليك، بل يتوارى ويمتنع عن الوسوسة إذا استعذتَ عليه بالله.

إن كنْت مُنتبِهاً له، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك، وذهب إلى غيرك، لذلك يقول تعالى عن الشيطان: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾ [الناس] أي: الذي يخنس ويختفي إذا ذُكِرَ الله، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حيَلُه، واستجبتَ لوساوسه، فقد أصبحتَ فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه.

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن واختبارٌ لانتباهه وحَذَره من هذا العدو، فينزغه الشيطان مرَّة بعد أخرى لِيُجرّبه ويختبره، فإذا كان النزغ هكذا، فأنت حين تجادل بالتي هي أحسن لا تعطي للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجّج العداوةَ الشخصية بينكما، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه، وهكذا يتحوّل الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية.

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صِلَة لك بهما، ولكن ضايقك هذا النزاع، فما عليك إلا أنْ تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً، وأتحدّى أنْ يستمر النزاعُ بعدها.

إنها الماء البارد الذي يُطفئ نار الغضب، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوسُ، وما أشبهك في هذا الموقف برجل الإطفاء الذي يسارع إلى إخماد الحريق، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنيَّة صادقة في الإصلاح، وليس لك مأرَبٌ من هذا التدخّل.

والشيطان لا يجترئ على أنْ يستزلَّ أحداً ممنْ آمن إلا إذا صادف فيه تحللاً من ناحية، لكن الذي ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطانُ، ساعةَ يأتي الإنسانُ ويعطي لنفسه شهوةً من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول: هذا ضعيف، هذا نقدر أنْ نستزِلّه. لكن الذي يراه لا يطاوع نفسه في شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً.

ولذلك فالنفسُ هي مطية الشيطان إلى الذنوب، وفي الحديث الشريف: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)).

وعندما يرى الشيطانُ واحداً تغلبْه نفسه في حاجة، فالشيطانُ يقول: هذا فيه أمل ! وهو الذي يجري منه مجرى الدم كما سبق في الحديث، أما الملتزم الذي ساعة تُحدِّثه نفسه بشيء ويأبى فالشيطانُ يخاف منه، إذن: فالشيطان لا يستزل إلا الضعيفَ، ولذلك فالذي يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترئ عليه الشيطانُ أبداً.

المحتويات

١٠٣١

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٢٤٨٢٧٨٥١